خبايا الظلال

مروة جمال

نخطو فوق أعتاب الحياة بجشع
ظناً منا اننا سننهل من رحيقها كل
شيء
تأكلنا الأيام ونرقص نحن فوق أنقاضها
ومع أول صفعة من ضوء الشمس
ندرك أننا مجرد ظلال
نقتات على بريق الجنون
وبين ظلمات الليل نتلاشى
نواجه حقيقتنا أم ربما خبايانا

خبايا الظلال..

خبايا الظلال

مروة جمال

تدقيق لغوي

نهى طلبة

تصميم داخلي

مروة جمال

المقدمة

وأخيراً انتهى الزفاف.. لم تتصور أنها قد تصرح لنفسها جهراً بتلك الأمنية الحمقاء، خاصةً مع توجسها من تلك الدقائق التالية التي ستحتويهما سوياً.

تنهدت بأسى وهي تتفكر في تلك الزيجة المجنونة التي أتماها في شهر واحد فقط لم تتقابل فيه مع زوجها المنتظر سوى مرات معدودة، والمخزي أنها هي من سعت خلف هذا الزواج أكثر منه وتعجلت لإتمامه!

تنهيدة أعقبتها بابتسامة ساخرة وهي تتجول ببصرها على الفضاء الشاسع حولها، أقصى أمانيها كانت أنْ تستمر بالحياة بقصر مختار، هذا البيت الذي انتقلت إليه بعد وفاة والدتها وهي لم تكد تتم عامها السابع من العمر.. هي لا تتذكر أمها، بل لا تعرفها كما تعرف فريدة.. خالتها التي تولت تنشئتها بعد فقدانها للأم وهروب الأب من النظر حتى إلى ملامحها رغم أنها لم تمتلك من ملامح الأم الراحلة شيئاً فهي قطعة صغيرة من فريدة.. نفس الملامح

وربما نفس الجشع الذي جعلها لم تتمنى شيئاً في الحياة سوى التنعم ببذخ آل مختار لآخر العمر

"حقاً لقد فاجئتني يا طارق، بل فاجئتنا جميعاً!!"

حادثت نفسها وهي ترمق منزلها الجديد، بل قلعتها المشيدة التي أبهرت عينيها منذ وقعتا عليها.. تلك الأشجار التي تتخذ موقعها بزهو على مدخل القصر تبدو وكأنها كظلال قاتمة في عتمة ليلٍ لا ينشد سوى عبق الضياء.

لا تدري ما سر هذا الإنقباض الذي هاجم قلبها بضراوة عندما لمحت القصر لأول مرة.. كان يبدو كصخرة سوداء ترتكز بشموخ كاذب على حافة الأرض وكأنها صرح وهمي آيل للإنهيار.. الصخرة لا يختلف باطنها عن ظاهرها كثيراً فهو صلد، قاسي رغم مظاهر

الترف..

كانت قلعة مشيدة من ثلاثة أدوار أولهم كان يبدو كديباجة ملكية تشدو التباهي، وأوسطهم خصوصية الأمراء، وآخرهم قاتم كالفحم وكأنه مأوى للعبيد من الزمن البائد!

إنه قصر طارق مختار التركي..

الزوج المنتظر التي طالما سمعت عنه وداعب خياله أحلام مراهقتها منذ سنوات، بل منذ أن همهمت خالتها أمامها بكلمات ذات مغزى عن زواجها بطارق.

وهكذا وجدت نفسها تخطو بحرص لدرب لُقياه في مواكبة لخطط خالتها البعيدة الأمد..

فريدة رستم الجميلة التي تمكنت من قلب وعقل مختار التركي منذ سنوات وكادت أن تبلغ عنان أمانيها بالسيطرة على امبراطورية الجاه والمال والسيادة، لولا سخرية القدر التي لم تمكنها من جلب وريث آخر غير المحظي بدنياه طارق ابن زوجها الأوحد ومن امرأة أخرى سقطة يسدد الزوج ثمنها حتى الآن، بل والابن أيضاً الذي تم ابعاده عن القصر بإيعاز منها وسموم لا يعلم أحدٌ فحواها نفثتها بقلب الزوج فقذف ابنه بقسوة من ينشد الكمال خارج عالمه، وأرسله لأحد المدارس الشديدة التعنت علها تفني تلك الطباع البذيئة التي حتماً اكتسبها مِن مَن لم تستحق بذوره!.. ليصبح طفلاً بلا أم رغم أنه يمتلك اثنتين.. واحدة بأوراقه الرسمية تكره طلته، وأخرى حقيقية تبخرت من عالمه قبل أن يستنشق ملامحها.

ابتسمت ساخرة وهي تتذكر ماضي عائلتها المشرف، وجنون خالتها مع عودة طارق لكنف أبيه بعد سنوات عجاف من البعاد ليحصد ما حاولت بيأس أن تحصل عليه لسنوات عدة، ولتكتشف أنها لم تنل سوى الفتات وأن العجوز في النهاية وكل ما يمتلك فلابنه.. هذا الغريب الغامض الذي ظهر كمالكها المنتظر بالحفل الذي أقامته فريدة على شرفه في خطوة أولى نحو تملك سطوة العائلة من

جديد، ولكن تلك المرة ببطلة أخرى أصرت أن تكون خليفتها في الجشع.. ابنة أختها الوحيدة والتي ورثت عنها كل شيء، بداية من ابتسامتها اللعوب حتى رأسها الإبليسي.. وهكذا التقت به، فكانت مقابلة الجميلة والوحش.. كما تقول الأساطير..

طارق وجوان.

خبايا الظلال

مروة جمال

الفصل الأول

استندت على أحد الطاولات الجانبية ترمق نفسها في المرآة.. رأت نفسها فاتنة بثوب زفاف امتزج بياضه بظلال ذهبية لامعة تواكبت بسحر مع خصلاتها النحاسية التي صُففت بإتقان على جانب بشرتها الوضاءة، لتتخذ تماوجتها الثائرة طريقها بحرفية حتى خصرها النحيل..

ابتسامة ماكرة علت زاوية ثغرها وهي تتذكر وصايا فريدة العشر، الرجل يعشق السطوة.. التملك, وما ألذ رحيقه إذا كان زائفاً.

الليلة ستكون له زهرة يانعة، ستكون مبتغاه وستوهمه أنه بطل قادم من بين حكايا الأساطير فقط من أجلها..

الرجل يعشق ذكاؤه حتى الثمالة لدرجة أنه يتصور أنه من المحال أن ينخدع بأنثى!

لا يدرك أن وراء كل رجلٍ مهزوم خديعة امرأة..

فليتصور أنه المالك والآمر والناهي والمسيطر والزعيم الأوحد لعالمهما المخملي ولكن... ببساطة هي قررت أن تكون الطعم والصياد، الخاضعة لدقائق معدودة، وبعدها ستكون الأولى والأخيرة والأنثى التي سيغيب حتماً بين دهاليز دهائها دون رجعة..

ثروة مختار ستصبح تحت قدميها عن قريب وهذا الهائم بجمالها لن يبحث عن شيء سوى رضاها.

زفرة حارة أطلقتها عندما أيقنت أن هائمها قد ودعها بغموض عند مدخل القصر وتركها تتلمس طريقها لغرفتها وحيدة بحماقة دمرت تصوراتها لأولى للحظاتهما معاً كزوجين..

وكأنَّ القسوة هي نقش حصري لملامحه فقط ولكنه مجرد لطيف بقلب أحمق.

"سأمنحكِ بعض الخصوصية"

تلك كانت عبارته الحمقاء التي أمطرها بها فور دخولهما وها هو غائب لأكثر من نصف

ساعة وهي متفردة بخصوصيتها حتى الحنق.
خطواته بجانب الباب أثارت انتباهها ورغماً عنها وجدت نفسها تتمتم:

- أخيراً

ضحكة عابثة علت ملامحها فيبدو أن هائمها ليس أحمقاً كما تصورت بل نجح بخبث في حصد اشتياقها نحوه..

انفراجة الباب عبثت بثقتها الواهية وأيقنت أن قلبها الآن عاد منتفضاً بذعر، ولوهلة تمنت لو أنه لم يظهر..

تجولت ببصرها في الغرفة باضطراب وتوردت وجنتاها رغماً عنها عندما أغلق الباب خلفه ليتكأ على الحائط يرمقها بابتسامة غامضة ونظرة تجولت على جسدها بإزدراء لم تفهمه، تلعثمت بنبرة متحشرجة:

- لماذا تنظر إلي هكذا؟!

ابتسم ساخراً وأردف بصوت أجش:

- ألا يحق لي التطلع بوجه عروسي؟

ابتلعت غصتها ثم ابتسمت باقتضاب وهي تلعن غبائها وأحلامها الوردية عن الثقة، وعن شيطان خالتها التي تمنت أن يتلبسها بتلك اللحظة علها تمتلك هذا الرجل كما أرادت..

بعد لقاء بصري شاق أتقنه دون رحمة أردف بتهكم:

- أرى أنكِ لم تخلعي ملابسك بعد، هل كنتِ بانتظاري؟!

شعرت أنه أسقط دلواً من المياه الباردة فوق رأسها دون رحمة.

تهدجت أنفاسها رغماً عنها وأحست بغليان موجع يجتاح رأسها رغم ثلجية ألمها في البداية..

أغمضت عينيها في محاولة مستميتة لاستعادة تمردها وصرف هذا الضعف الأنثوي الذي اجتاحها فور ظهوره لتهمس بتنمر:

- فقط بأحلامك!

عبث ضحكته الرنانة زاد من أوج غضبها خاصةً بعدما أردف بنبرة غامضة:

- صادقة فيما يخص الأحلام، ولكن لا أعلم هل

ستظل أحلاماً أم ربما ستتحول لكوابيس مسائية لأحدنا!!..

كانت ترمقه بغضب، غضب لم يمهلها الوقت ربما لتفسير عباراته أو نواياه..

ودت لو يختفي من أمامها الآن أو ربما للأبد!.. بل ودت لو عاد بها الزمن ورفضت تلك الزيجة التي ظنت أنها بها قد فازت بورقة اليانصيب للأبد.

تزامنت عبارته الأخيرة مع مغادرته للغرفة، لم تشعر بالخزي يوماً مثل تلك اللحظة بكلماتها القاسية التي كان يبدو عليه أنه يقصد كل حرف فيها:

- آسف لتبديدي أمنياتك.. سأتركك لترتاحين بغرفتك.. تصبحين على خير!

تهاوت..

نعم تهاوت فعلياً على الأرض بكل ما تحمله الكلمة من معنى، جذبت بغضب الوريقات الذهبية التي زينت بها خصلاتها فتبعثر تاج جمالها دون ترتيب لتهمس بظلمة:

- غبية!..

****

قبل الزفاف بشهر واحد....

كان قصر مختار قد تزين بالأضواء بعد أيام من تجهيزات من قدم وساق لليلة الإحتفال الكبير من أجل عودة الوريث المنتظر..

طارق...

منذ طفولتها وهي تستمع لعبارت خالتها الحانقة على طارق ومن أحضرته للدنيا..

تلك المرأة الغامضة التي تم اصدار فرمان قاسي من الوالد بابعادها عن حياة ولدها وعن عالمهما الماسي.

واختفت المرأة التي لم يعرفها ولم يقابلها طارق قط.. ظلت لسنوات أمامه مجرد اسم مبهم تذكره فريدة ببغض.. كره لم تستطع تجاوزه وتجاوز تلك النزوة العابرة بحياة زوجها، ليتحول لابنه الأوحد وبعد مثابرات عديدة من قذف السموم غادر طارق الفيلا بغرض إعادة تأهيله كما ادعوا..

منذ أن شبت وحيدة بقصر عتيق يحوي امرأة ليست بأمها ورجلاً ليس بأبيها.. تحتفظ في جيوبها الصغيرة بذكرى ذهبية تحمل صورة رجل وامرأة لا يشبهانها والإسم أبواها!!..
كلما تذوقت بأس خالتها تهرع لقلادتها الثمينة تتأمل صورة أمها بعيون باكية تنشد الحنان.. لطالما تذوقت نشوة الحب بتلك الملامح المفعمة بالطيبة, تلك الملامح التي اختطفها الموت قبل أن تتوغل بذاكرتها وغابت قسراً قبل أن تحفر قسماتها بذاكرتها الخاوية.
الذاكرة التي لم تكن تتسع سوى لحلاوة السكاكر وحصاد الإشتياقِ نحو سحر الألعاب وذكرى أخرى لرجلٍ يُقال له أب..
حروف مرتبة بشهادة ميلاد تحمل حضور زائف وليس أكثر!.
كان غائباً بملء إرادته, اختار أن يبقى كظل داخل حكايا رأسها تُغرد عنه ما تشاء وترسم ما تبغي وكأنها تخدع نفسها قبل الجميع,
وغاب لسنوات عدة ليعود بعدها رجلاً كما تمنى أبيه وربما أكثر, وينال كل شيء سعت فريدة لإختطافه منه منذ البداية..
لم تجد فريدة بُداً من مواجبة التغيير بعالمها وطالت الإبتسامة الأفعوية شفتاها وقررت أن تسعى نحو ترويض العدو مادامت لم تتمكن من هزمه أو ربما إقصاءه..
تتذكر كيف انقضت على غرفتها الصغيرة بأحد الأيام لتسرد ما لم تتمكن من مواكبته عن حياتها مع مختار وغفرانها له على مرارة الخيانة التي أذاقها إياها مع أحقر الناس..
عائلتهم التي تم دهسها بفضل محدثي النعمة مثل زوجها وغيره ولكن تلك هي الحياة,
فأمثال عائلة التركي دوماً ما يبحثون عن اسم مثل عائلة رستم ليلتصقوا به, ومثلما فعل مختار سيفعل طارق ولن يجد من هي أجمل منها لتمتلك مخزون ثرواته.
وافقت دون جهد يذكر وكأن فريدة قد وخزت بمكر بالون أمانيها المستترة..

فظلها الغائب لم يكن سوى سكير مقامر يتنقل دون كلل بين طاولات المتعة متسولاً ما تطاله يداه من الجميع وأولهم فريدة..

وهذا ما غذى حيرتها وحنقها لسنوات، فرغم كل شيء تساعده فريدة!

ولهذا كان صك موافقتها جاهزاً فهي لم تكن تنوي المجازفة بلعنة الإحتياج، كما تكرر خالتها..

"الرجال نوعان نوعٌ يشتهيكِ بماله، وآخر يشتهيكِ بمالك.. والمرأة الذكية هي القادرة على تجنب الأسوء"

خطت بثقة نحو المسرح على الرغم من حماقة ما بدا عليه الأمر، بدت كأميرة من أجل ولي العهد مزينة فوق طبقٍ من الحلوى تتهادى بكلماتٍ فارغة عن طموحتها وأحلامها وتتقن ببراعة ارتباكاً أنثوي أمام اجتياح نظراته..

كانت مقتنعة مائة بالمائة بمكسب الصفقة.. عفوا الزيجة.

وهو رغم قساوة مظهره وازدرائه البينُ لكل مظاهر الترف التي ابتدعوها من أجله بدا هائماً بالفعل داخل متاهة خصلاتها المنكهة بلونين الذهب الأصفر والأحمر.. حاصرها لأيام متتالية وأصبحت واثقة من قوة تأثيرها على هذا الرجل الذي كان قد غادر لتوه ربيعه الثالث والثلاثون.. وكانت هي ما زالت على أعتاب الخامسة والعشرون من العمر..

تقدم للزواج منها بطلب رسمي ووافقت على الفور منتشية بانتصارها ونجاحها في إيقاع العريس المنتظر..

الزوج الذي تركها لتوه بليلة زفافها لتقضيها وحيدة دون أن يُبدي أي رغبة بها حتى وإن كانت كاذبة!..

****

زقزقة العصافير بدت مزعجة للغاية، أي عصافير تمتلك هذا الصفير الصاخب وكأنها عن قصد تتعمد إيذائها.. تأوهت بألم وهي تحاول أن تستفيق من تلك الغفوة المؤلمة لظهرها وكأن فراشها تم استبداله بأرض خشبية قاسية

الملمس، وبدأت طيور العالم رحلتها نحو نافذتها فقط منذ ليلة أمس..

فركت عينيها لتستوعب تلك الغرفة الواسعة الغريبة عنها وهذا الفستان العاري الظهر والصدر دون جدوى!

تذكرت وأيقنت أنها تزوجت بالفعل وأن هذا الصباح ليس مجرد اشراق سرمدي بغرفتها، بل هو صباحية العروس كما يطلقون عليه.

زمت شفتيها وعاد استعار الغضب ليتمكن منها مرة أخرى الآن.. تتذكر الأمر بتفاصيله المهينة، شعرت بلحظة أنها تكرهه، بل تكره كل ما يخصه خاصة تلك النبرة الباردة التي حدثها بها ليلة أمس.. لا بل تكره حركة شفتيه ومخارج حروفه المنتقاه..

زفرت بعمق وما لبثت أن استكانت مهدئة من ثورتها مقررة تدليل نفسها كما تستحق كل أنثى، والبداية هي حمام صباحي سيخلصها حتماً من تشنج عضلاتها..

همست لنفسها بسخرية..

"وبالنسبة لزوجي؟!.. حسناً.. فليذهب إلى الجحيم!!"

تخلصت من ثوبها القاسي الذي خنق أنفاسها منذ ليلة الأمس وغاصت بقوامها داخل المغطس مغمضة عينيها دون أفكار وكأنها تسعى بإصرار لصرف كل ما قد يثير حنقها ولو لدقائق.

متعة السكون..

قليلون من يدركون تلك النعمة فيسعون لتلويث عالمهم بصخب الحديث والعراك.. وأوقاتاً موسيقى سيئة الوقع بغرض الطغيان، ولكن هي.. هي تقدر تلك المنحة وتحافظ عليها جيداً كلما استطاعت، فمع السكون تسمع ما تشاء.. وتتصور ما تشاء.. ولا يجبرها أحد أو شخص أو ربما عبث أشعار على الإبحار في خياله فالخيال ملكها وحدها دون منازع..

كان خرير المياه يمثل خلفية رائعة لسكونها الساحر ولكن وقع خطوات ثابتة قريبة أفزعها،

فانتفضت لتجده واقفاً فوق رأسها تماماً!
تلجمت لوهلة من الموقف حتى أنها لم توقن ما أظهرته بسخاء رغماً عنها..
كانت ترمقه بجحوظ ثائر زاد من تسارع أنفاسها الغاضبة، وجدت نفسها تصرخ في هجوم دفاعي:
ـ من تظن نفسك؟!.. كيف تقتحم خلوتي بهذا الشكل؟!..
كان يقف في مواجهتها بملامح هادئة.. بدا بتلك اللحظة رجلاً مرغوباً للغاية خاصة مع هذا البريق المتوهج بعينيه الذي يوحي بأنه قضى ليلة من أفضل لياليه على الإطلاق!!
لامت أفكارها في صمت وعزت ظهوره كانتصار لها قاطعه هو بابتسامة مستهزئة تزامنت مع نظرة صريحة نحوها تحمل مكراً ذكورياً:
ـ أنتِ لم تهتمي بإيصاد بابك.. ربما كنت بانتظاري!!
لوهلة أيقنت أنها ببساطة عارية وبسخاء..

غاصت على الفور بالمغطس لتتابع بحنق أنثوي اجتاح ملامحها: ـ أخرج حالاً.
جلس على حافة المغطس وأطال النظر نحوها بغموض ثم تابع بتهكم:
ـ لا داعي للذعر، فالطعام أمامي ولو كان لي به رغبة لتناولته على العشاء!!
مهانة ومذلة لم تستشعرهما يوماً بحياتها من قبل.. عبرة حارة الملمس هربت من عينيها.. وارتجافة مؤلمة عبثت بشفتيها وهي تتمتم:
"لماذا تزوجني هذا الرجل؟.. لماذا!"
أنهت حمامها بأعجوبة، فلم تظن أن جسدها المتراخي سيستطيع الصمود والخروج من هذا المغطس، بل والوقوف على قدميها لمواجهته..
فكما تصورت كان ما زال بالغرفة، لم يتركها رغم تلكأها المقصود بالداخل..
كانت تتفكر أي ورطة أوقعت بها نفسها، وأي فريسة قررت اصطيادها تحت بند الزواج..
هل انقلب الوضع وأصبحت هي الطعم بحق!
هل تزوجها من أجل أن ينتقم من فريدة التي

أذاقته المُر منذ نعومة أظافره.. أي حماقة انتابتها!.. وأي درب مهلك قررت سلكه خلف عقل خالتها الشيطاني!..

ماذا عساها فاعلة هل ستعود مُطلّقة بعد ليلة واحدة من الزفاف!

شهقت بفزع وهي تتصور أن هذا قد يكون غرضه بالفعل فربما يسعى لافتعال فضيحة لعائلتها إنتقاماً من فريدة..

ولكن كيف؟..

كان الأدهى به أن يعاشرها معاشرة الأزواج لتكتمل مذلتها..

كانت تفرك صدغيها في محاولة يائسة للتفكير.. تصورت عجزه بشكل أو بآخر وربما هو بتلك اللحظة ينتقم منها ومن كل النساء.. تخيلت أنه يعبث معها ليحيل حياتها جحيماً، ربما لجنون أصابه!!.. فحتماً هو مريض وهي بكل سلاسة ألقت بنفسها بين براثنه.

خطواتها المتعثرة داخل الغرفة ورباط مئزرها المحكم أرضى غروره.. لمحته يعبث بفستان زفافها بازدراء وقد تناثر ذيله الطويل تحت قدميه..

شعرت بنفسها صغيرة.. صغيرة للغاية مثل هذا الثوب الذي يصر على تحقيره..

اقتربت منه بغيظ نمرة لتجذب منه الثوب بشراسة تركت آثارها الحادة على أنامله وزعقت بحنق:

- اترك هذا.

تمكن منه الغضب لوهلة ولكنه عاد لهيئته الباردة مرة أخرى ليردف بنبرة مشاكسة:

- هل تشحذين أسلحتك ضدي الآن؟!

توجهت بكبرياء نحو خزانتها ثم قامت بتعليق الفستان بتأني على شماعته لتستدير نحوه بتحدي:

- يبدو أنك لا تقدر قيمة النفيس، فاعتبر هذا أول دروسي لك إن شئت!

رمقها باستهزاء ثم توجه نحوها متخطيها ليجذب الثوب بقسوة أكثر تلك المرة ثم رفعه أمامها متابعاً:

- هذا النفيس ابتعته بمالي، وبالتالي لي الحق في فعل ما شئت به وبغيره!
قبل أن تستوعب هالة الحقد المنتصبة أمامها كان ثوبها قد شُق في لمح البصر لنصفين..
ألقى ببقاياه في وجهها ثم تمتم ساخراً:
- ستظن خالتك بالطبع أنني أفرطت في أشواقي نحوكِ وربما تباركِ لكِ على نجاحك!.
كاد أن يتخطاها ولكنها أوقفته بجرأة لا ينكر أنها ألجمته خاصة عندما همست بفحيح منذر:
- سأخبرها بكل شيء، وستكون رجولتك المنقوصة حديث مائدتهم الليلة لا محالة.
الغضب، قاسٍ.. مهلك.. قاتل..
أيقنت حماقة ما تفوهت به عندما شعرت بكفه الغليظ يحيط رقبتها بيأس قاتل، إزهاق روح هذا بالتأكيد ما تشعر به الآن، ولكن ما تلا ذلك جعلها توقن أنه ربما بانتظار ما هو أمر وأقسى..
مئزرها الذي قذف به بأحد أركان الغرفة ومذلتها وهي مرتجفة بين ذراعيه دون حيلة..

ابتعد عنها وعلى ملامحه ضيق ورفض أبكاها بلحظتها على الفور..
ارتدى ملابسه دون أن يستدير نحو جسدها المتصلب على الفراش ثم همس بقسوة:
- للأسف عذراء!.. كنت قد تمنيت هفوة تضمن استمتاعي بإذلالكِ.
كانت متجمدة كتمثال باكٍ.. الحشرجة بنبرتها بدت خانقة وهي تتمتم دون وعي:
- دعني أحقق لك أمنيتك... طلقني الآن.
شرد لوهلة وهو يرمق السحر العاجي الممدد خلفه من المرآة ثم تابع بهمس متوعد:
- تلك هي مجرد البداية... زوجتي!

خبايا الظلال

الفصل الثاني

انكمشت على الفراش بوضع جنيني تنشد به الطمأنينة..
ملوحة عبراتها كانت قاسية ربما بقدر قسوة تلك اللحظات المريرة التي اختبرتها منذ قليل..
رمقت بالمرآة بقايا أنثى خطت بجنون نحو دائرة ثأر لا تدرك مغزاها.
أي جرمٍ اقترفته وأي عبث هذا الذي تسدد حسابه عن أخرى!!..
هل هي حقاً فريدة؟!.. هل يكرهها لتلك الدرجة فينتفض اشمئزازاً من كل ما يخصها!!..
وهي الحمقاء التي خطت بسذاجة نحو هلاك انتقامه..
جذبت غطاء الفراش ربما لتداري عُري روحها قبل جسدها..
شعرت بالخجل من قرينتها المتبجحة بوجهها بالمرآة وكأنها تهمس..
"أنتِ من سعيتِ نحو هذا"

أزيزٌ ملّح أيقظها من غفوة لا تدرك وقتها..
تراجعت بفراشها بغضب مكتوم تراقب تقدمه بخيلاء نحوها وكأنها إحدى جواريه!
ظل يتأملها دون أي تعابير واضحة بملامحه.
تمددها على الفراش ذكره بما حدث بينهما منذ سويعات قليلة..
فقد أعصابه وبرر لنفسه ما يريد بذريعة العقاب. أصبح مجرد شهوة مختبئة بكيان رجل لتقوده بتأنٍ مهلك نحو الحماقة.
نفض أفكاره سريعاً واستدعى بأسه ليباغتها متهكماً:
- أي زوجة تغفو للآن دون أن تحضر طعام الإفطار لرجلها!
للحظة تمكن منها الذهول.. هي لم تتزوج بمنتقم بل بمجنون!..
هذا الرجل فاقد لعقله بالتأكيد وفوق كل هذا هي تراه مشوهاً ليس بفعل عبراتها التي استأثرت بعينيها, بل هي حقاً تراه مشوهاً!
بعد صمت طويل لم يسع هو لقطعه قالت

لتخرج نبرة تنشد القسوة:

- أخرج.

ضحك ساخراً:

- ماذا؟!

تهدجت أنفاسها لتصرخ متابعة:

- قلت لك.. أخرج.

تقدم نحوها ببطء عبث بما تبقى من أعصابها ثم جذبها بغلظة من خصلاتها حتى واجهت فحيحه المنذر..

- تأدبي يا امرأة!

وقاحته ألجمتها، حتى أنَّ تمتمتها بدت مشوهة:

- ماذا؟!

ضحك بتهكم:

- ألستِ امرأة؟!

- بل أنت!

مرة أخرى يقذف لسانها بحماقة مكنونَ غضبها، لا تدرك متى حدث هذا وكيف.. وهل أغمضت عينيها تفادياً للصفعة أم قبلها!!..

تلمست وجنتيها بألم لتنطق بمجاهدة مرتعشة:

- أريد الطلاق.

ضحكة أخرى.. هازئة.. كانت جوابه قبل أنْ يقذف بكلماته ببرود:

- الموت أقرب إليكِ من الطلاق، ومن المبلغ الخرافي الذي أصررتما على وضعه كمؤخر للصداق.

انتفضت بغضب هادر زاعقة:

- لا أريد منك شيئاً، سأتنازل عن أموالك المسمومة، فقط أرحني من طلتك المقيتة.

برقت عيناه بشراسة، تلك المرأة يجب أنْ تنال الأيزو على قدرتها في تأجيج غضبه!!

استدعى هدوءه ليردف متابعاً بسخرية:

- طلتي لم تكن مقيتة بالأمس!!

همست بسخرية مماثلة:

- كنتُ حمقاء.

قهقه متجولاً في الغرفة بتملك ثم رمقها

بوعيد:

- حسناً يا حمقاء.. طلاق لن تناليه.. وإذا حلمتِ بهذا القانون المُسمى بالخلع، فلتنهيئي لبأس وفضائح لكِ ولعائلتكِ لا تحصى، هذا غير ديون أبيكِ التي تحولت كلها لشخصي!!

صدمة .. بل نهاية.. حتماً ما تعيشه هو النهاية البائسة لسيناريو فاشل وهي البطلة دون منازع..

أبيها!!.. ديون!!

تمتمت بيأس:

- أنت مريض.

ابتسامة قاسية علت ثغره قبل أن يهمس بشراسة:

- تحتاجين للقوت عزيزتي، خاصة مع المناحة التي ستبدأ بعد قليل على صدر خالتك!

خالتها؟!!

أهذا ما يسعى إليه؟.. مذلة فريدة؟ ماذا يخطط؟.. وأي ثأر يبغي؟..

تصلبت الكلمات على شفتيها فلم تعلم بماذا

تجيب.. فحكماً هذا الرجل لا تصلح مع الكلمات، هو يحتاج لرصاصات قاتلة ترديه على الفور وتريح العالم من شره!! .

رمقها بانتصار وتلونت لمعة عينيه ببريق النشوة والتملك والفوز فأردف بنبرة متهكمة:

- يُقال أن الغضب معدي والبكاء أيضاً.. أرجو أن تتأهبي قبل أن يطل علينا الضيوف، فقد حان وقت العدوى وأنا حتماً سأستمتع بها!!..

تركها دون أن يكترث حتى بمراقبة ملامحها.. تأثير عبارته على دواخلها، شعرت أنها لم تفعل شيئاً سوى مساعدته بحماقة على تحقيق لذته المفقودة..

بصمود جففت عبراتها وبقتالية تحكمت بنبرتها لتردف بابتسامة كاذبة وهي ممسكة بالهاتف:

- مرحباً فريدة.. أنا بأفضل حال، أرجو ألا تحضري اليوم.. فطارق قرر أن يفاجئني بسفرة مثيرة للغاية!

كعادتها كل صباح.... تتناول إفطارها في الحديقة وتراقبه من بعيد، يقف منتصباً رغم كل السنوات الذي تمكنت من أوراق عمره.. شامخاً رغم أنه مجرد أجير، بستاني لا يدرك من نعيم الدنيا سوى أشواك أزهاره..

تنهدت ساخرة من سخرية عالمها واصرارها المجنون على الإحتفاظ به رغم كل ما حدث، وإصراره هو على البقاء!..

عادت لإرتشاف قهوتها بكياسة كما تعودت وكما عهدها الجميع، فهي فريدة رستم.. المرأة التي لم تفقد بريقها أبداً رغم مرور سنوات عمرها الخمسين، أنيقة في كل ما يخصها بداية من ارتشاف قهوتها الصباحية مع قطعة الخبز المنكهة بالقليل من الزبد، حتى أناقتها المسائية التي تُتِمُّها بقميص نوم حريري يتساقط منسدلاً على جسدها الناعم الذي توقف نموه عند فصل الربيع ولم يعرف للخريف سبيلاً!!..

استدار نحوها بنفس التوقيت ككل صباح.. تكون قد انتهت من تناول افطارها القليل، وانتهت أيضاً من مراقبته ومن تجاهل أزهاره التي يحرص على انتقاءها كل شروق من أجلها..

مع بزوغ الشمس ينتقيها، زهرة أوركيد يانعة تحمل بين أوراقها سحرها وجنونه.. كلما أغمض عينيه يخرج بتلك الذكرى، وتلك الليلة، وتلك الزهرة التي اقتطفتها من بين أحواضه لتثبتها بمهارة بين خصلاتها الناعمة فقط بلحظات قبل أن يستسلم لدعوتها المبطنة وينقض عليها!

مجون امتد لساعات بين سيدة القصر والبستاني الوسيم وما زال حتى الآن يعاني مرارة آثاره.

غرز فأسه متنهداً ونشَّف بظهر يديه حبات العرق المتساقطه من جبينه ورحل.. فهو لا يحتمل المكوث بهذا القصر أكثر من ساعات الصباح، يُنهي عمله ويرحل ليعود في اليوم التالي.. ويبدأ من جديد ويهديها أزهاره من

مروة جمال

"تود الإنتقام يا طارق؟.. إذاً فقد عبثت مع الشخص الخطأ!"..

ينشد الرجل في قسوته السيادة، يظن أنّ خشونة صوته وقوة جسده تبيح له الزعامة ولو فوق جسد امرأة!

ابتسمت بتحدٍ وكأنها تعاهد نفسها..

"لنرَ كيف ستنجو من دهاليز الدهاء أيها الزعيم؟!"

قرقعة حذائها الصاخبة أجفلت الخادمة التي كانت غارقة في ارتباكها الأزلي أمام الصقر الرابض بمواجهتها..

مال هذا السيد الغريب؟!!..

فمنذ قدمت لخدمته بهذا القصر العتيد الذي يشبه القلاع وهي تحت مراقبة عينيه.. ليست هي فقط بل جميع من بالقصر من الخدم، من يوقعه حظه العثر لخدمته يصبح لدقائق فريسة لترصد عيناه .. يراقب كل شيء، اختلاجتهم.. ارتجافة قبضتهم.. خطواتهم.. ابتسامتهم.. وأوقاتاً ذعرهم!!..

من جديد.. وتتجاهلها لتموت على الطاولة من جديد.. يقسم أنه سيرحل إلى الأبد ولن يعود لرؤيتها مجدداً، فهي شيطانة بعلم الجميع.. ولكن ما يلبث أنّ يجد نفسه مرة أخرى زاحفاً نحوها مستنشقاً عبيرها الآخاذ ولو على بعد أمتار قليلة حتى يرحل.. يرحل دون أنّ يدرك أنها عادت لمراقبته مرة أخرى ولكن من خلف قضبان النافذة..

****

تأنقت.. أظهرت حسنها بشدة، وكأنّ بهذا الجمال تكمن قوتها أم ربما كبريائها؟!

للمرة العاشرة ترتجف أصابعها على أزرار الهاتف.. تود باستماتة محادثة فريدة، الصراخ بوجهها والإنفجار واللوم والندم.. ولكن لا.. هذا ما يوده عدوها..

نعم.. فمنذ تلك اللحظة اعتبرته عدو، بل منذ ليلة الأمس أصبح الخصم.

ابتسمت بيأس وهي ترمق انعكاس صورتها بالمرآة

ينتهي، ثم يرمقهم بإزدراء ويصرفهم!
"وقح.. ولكنه حتماً يدفع الكثير من الأموال"..
هكذا حدثت نفسها ساخرة بعد أن سكبت
له بعض القهوة وحيت مخدومتها الجميلة
بأدب وشفاه ممتعضة على حال المسكينة،
خاصةً بعد أن تعلم بما يحدث بين جدران
تلك القلعة!
- سكر؟
كانت تلك هي بداية حديثه معها..
لم تتبدل ملامحه ولم تبدو عليه الدهشة لرؤيته
صمودها، بل ابتسامتها!!
تمعن في النظر نحوها وفي هندامها الأنيق،
كانت ترتدي بلوزة حريرية بيضاء اللون مع تنورة
قصيرة بصبغة رمادية تظهر سيقانها العاجية
بسخاء، خاصة مع هذا الحذاء القاتل الذي
يظهر بمكر منحنيات قدميها الناعمة المتواكبة
مع كعبه الشاهق الإرتفاع وكأنه ناطحة
سحاب في حد ذاتها.
ارتشف القليل من قهوته ليردف بنبرة أجشة:

- ألا تجدين أن ثيابك غير ملائمة نوعاً ما
لعروس لم يمر على زواجها سوى ساعات قليلة؟
ضحكة هازئة خرجت منها عن قصد أتبعتها
بهمس ساخر:
- هل كنت تنتظر ثوباً أرجوانياً بزهور بيضاء؟!!
رمقها بتمعن وهو يراقب هذا البريق المتحدي
الرابض أمامه..
"تظنين نفسك امرأة قوية إذاً؟.. أم أنكِ
تجيدين ببراعة تقمص شيطان فريدة مثلك
الأعلى؟"
ابتسم بشراسة ليردف بنبرة هازئة:
- الحقيقة.. منكِ كنت أنتظر ابتكاراً آخر
لإغوائي!
تبدلت ملامحها على الفور.. غاب بريق عينيها
العنيد وتمكن منها الوهن للحظات..
يُصر هذا القمئ على إذلالها بكل السبل..
ابتلعت غصتها لتردف ببطء بعد تفكير
عميق:
- صدقني آخر ما أتمناه بتلك اللحظة هو

اغوائك، فاللحظات بين ذراعيك زوجي العزيز..
لم تكن الجنة التي تصورتها.
كانت تعلم أنها ألقت بقنبلة أخرى قد لا يحمد عقباها ولكن من يبالي.. لن تسمح لهذا المعقد بدهس كرامتها مرة أخرى، دلت بدلوها ونهضت مسرعة تنوي الهروب ولكنه انتفض ليقفز بسرعة فهد قاطعاً طريقها هامساً بفحيح حاقد:
- طالما لا تقدرين النعيم، فتحملي الجحيم إذاً!
ابتسمت ساخرة:
- ألا تدرك.. جحيمك بدأ منذ ليلة الأمس!
أردف بوعيد:
- أنتِ لم تختبري شيئاً بعد.
ارتجفت شفتاها لوهلة، ما بها فلتطلب الطلاق وترحل.. به أو دونه..
فلتخبر الجميع عن هذا العذاب الذي قرر أن يذيقها إياه دون سبب، ولكنها تماسكت وواجهته بجسارة متحدية:
- إذاً.. أنا بالإنتظار..

كادت صلابته أن تتزعزع من تلك الحماسة المطلة من عينيها، ولكنه استدرك نفسه سريعاً ليوقن أنها مجرد شجاعة واهية تستند على لا شيء.. اقدام أحمق من متسلقة لا تدرك من الدنيا شيئاً سوى البحث عن الأموال والتضحية بكل شيء في سبيلها..
وهو..
هو التركي الصغير الذي سيحفر على ملامح فريدة مقامها الذي تستحقه تلك المرة.
****
كانت قد صعدت إلى غرفتها تنشد الوحدة بدلاً من طلته.. خلعت ما عليها بعنف، مكافئة نفسها ببعثرة لحظية نالت من ملابسها وخصلاتها دفعة واحدة وكأنها تنشد الراحة..
ألا يُقال أنّ في التحرر راحة.. في الحرية إنطلاق.. وبالجنون خلاص!!..
ربما لهذا يسعى بعض مجانين الحرية لخلع ملابسهم والتجول عرايا بحجة الإرتياح..

النشوة.. التمرد!!..

تمرد على القيود، على الأعراف، على التقاليد البالية التي يكبلنا بها المجتمع تحت مسمى الأصول والواجبات والعيب..

المذلة التي ستتمكن منها إذا ما غدت مطلقة بعد ساعات من زيجة الأحلام.

كانت بقرب النافذة تنثر بضعة أكاذيب فوق أذن صديقه مُلِحّة أزعجت جميع هواتف المنزل.. هذا النوع من الأصدقاء الذي يبتسم بوجهك ويبعثر بهجته بسخاء فوق سعادتك التي يتمناها منقوصة، يُنَقّب بين حروفك عن ثغرة تشوه سعادتك علّه يرضى بدنياه.

تخلصت منها بحجة الزوج المشتاق رغم أنه في الحقيقة كان مغادراً أمامها غير مبالياً بظهوره خارج منزله بصباحية عرسه!

بدا غاضباً عندما ترجل من السيارة لدقائق مطيلاً النظر نحو أحد الجوانب البعيدة بحديقته الشاسعة.

تلك الحديقة التي تبدو في أبهى حلتها صباحاً.. كقروية مبتهجة غمرت جسدها بألوان الحياة في عفوية ساحرة..

شتلات الزهور مصففة بإتقان، تتوسطها التماثيل الرخامية المزخرفة بخرير مياه رائع لا ينقطع، الأشجار تبدو متباهية باختلاف أشكالها ومواقعها المميزة المحيطة بالقصر ككل،

تلك المقاعد الصغيرة المتناثرة بعشوائية خلّابة على عكس طلتها المخيفة مساءً مع قناديل الضوء المسلطة عليها كآثم على منصة الإعتراف.

وكان جمال تلك البقعة جزء من حيوية الشمس وظلالها الأنيقة.. هي برقع الحياء الذي يزيدها فتنة على عكس دجنة الليل التي تفرد بقسوة الحقيقة دون ألوان.

زفرت براحة وهي تراقب رحيله.. توجهت بنظرها نحو تلك البقعة التي أثارت غضبه ولكنها لم تلمح شيئاً همهمت ضاحكة:

- رجلٌ مجنون.. ربما أغضبته بهجة الفراشات!

تركت النافذة وتهالكت على الفراش؛ فكل ما تتمناه الآن غفوة سحرية تحول عالمها لحلم ثقيل عليها تستيقظ منه..

****

لتوها أنهت عدة أكاذيب صباحية بلكنة مجاملة.. الحقد يُطل من نبرتهم فالجميع يبارك حظ جوان التي ظفرت بالعريس؛ أم ربما الوريث..

حمقى يلهثون خلف ورق الحياة السحري مثلها تماماً!..

ضمت قبضتها في حنق وعقلها يردد على مسامعها ما كررته لأشهر..

"يجب على جوان أن تتزوج من طارق، فهي لم تفني شبابها مع التركي ليلقي لها في النهاية بالفتات"

واكب همسها خروجه الصباحي من غرفته، ملامح العبوس التي أصبحت ملازمه له بسنواته الأخيرة.. عويناته التي رغم سمكها لا تُريه تفاصيل دنياه، وخصلاته التي طمع بها الزمن مثلما طمع بما تبقى من صحته. سعاله الجاف بتوازيه القاتل مع أزيز مقعده المتحرك وكأنه رغم تهالكه قرر أن يتحايل على ما تبقى بالقصر من بهجة ليوئدها كعذراء آثمة!

تكرهه.. تكره كل ما يخصه..

بأوج شبابها ابتاعها.. وبقمة أنوثتها خانها.. وبذروة احتياجها خدعها.. والآن عليها الاعتناء بشيخوخته..

تركت العنان لزفرتها الرافضة لعبق مروره.. لم تعد تهتم بصوتها ولا بتبدل ملامحها في وجوده..

فهو إن سمع يسمع القليل، وإن رأى يرى الخيال، ولا يوجد مانع أن يحجر عليه ولده إن أراد، ولكنه ببساطة لا يحتاج.. فهو قد ملك كل شيء من الآن، ولولا أنها استطاعت بمكر أن تستأثر بهذا القصر لواجهت احتمال ضيافتها بمنزلها الخاص..

همهمته اقتحمت حديث نفسها.. كان يوبخ الخادمة برعونة وفيما يبدو يسأل عنها..

أشاحت بيديها في صمت مغادرة صحبته..
تحركت بضع خطوات قبل أن يوقفها صوت الطارق المتهكم وهو يردد:

- مرحبا أمي.

"أمي!!"

لا تنكر أن الغيظ تملك منها..

منذ متى يناديها أمي؟!

حتى عندما أجبرها مختار على تقبيده باسمها لم ينطقها طارق أبداً..

أمه هي الخادمة التي وضعته وهربت بأمر أبيه، وربما المربية التي تولت رعايته ولكن ليست هي..

هي أم بالأوراق الرسمية فقط..

وهو يحفظ هذا عن ظهر قلب، بل هي من تولت اخباره بنفسها وبمجرد أن فطن الحياة أدرك أنها ليست بأمه..

غيظها غذى ابتسامته..

تقدم نحوها بمودة مفتعلة..

- أم زوجتي، أناديها أمي.

- ولكني لست أم زوجتك.

- الخالة أم

- لا.. الخالة هي أخت الأم.

رفع يديه في اعتذار ساخر قاطعته بتساؤل غاضب:

- أين جوان؟

ضحك مجيباً:

- بالمنزل.

رمقته بنظرة فوقية اعتادها منها ثم قالت بلهجة ساخرة:

- وهل يصح أن يترك رجلاً عروسه بصباح زفافها؟

ابتسم بانتصار ثم اقترب منها هامساً بتهكم:

- حقاً مشكلة!.. ولكنها مشكلة عروسي وليست مشكلتي!

بغضب مكتوم سألته:

- ما قصدك؟

ضحك وهو يتركها متوجهاً نحو أبيه ومعلقاً بنبرة عالية:

- انصحيها!

وكأنه قصد أنْ يُسمعها لكل من بالمنزل وبالأخص الخدم.. نعم الخدم، طائفته التي يود أنْ يُظهر أمامها بريقه وخفوت نجم زوجته..

هزأت منه بنفسها مرددة:

- في انتظار ما بجعبتك يا ابن الخادمة!

****

- كنتِ تعلمين!

نطقتها بلعثمة، بل صدمة..

شعرت أنها تبدو كفريسة مُدَمَّاة.. معلقة بوتد خشبي بوسط غابة موحشة بانتظار قاتلها.

كانت تعلم بل توقن أنْ الحياة مع طارق ليست بالنعيم، ولكن مثلة الأم قيدتها لا بل صلبتها بأوتاد مذهبة بأرض جنة الأكاذيب.

- جنة!!.. نعم أنا بالجنة!

كان همسها باكي.. قبضت فريدة على ذراعها النحيل لتجذبها نحوها بتملك ثم حركتها كدمية حول الغرفة وهي تغرقها بفحيح ناعم:

- أنظري حولك..

أشعرتها بالدوار..

همهمت جوان بعجز:

- ماذا؟

- أنتِ سيدة القصر.

- بل هو السيد وأنا تحفته المنتقاة.

غمغمتها جوان بألم..

تهكمت فريدة:

- أود أنْ أفتقد كلماتك المعقدة!.

- بل حياتي هي المعقدة.

- بل تفتقدين الثبات.. احذري.. بانهيارك انتصاره

- زيجة هي أم معركة؟!

- الزواج معركة.

سابقتها جوان:

- بل توافق.

ضحكت فريدة.. بدت ضحكتها من القلب

أجابتها ساخرة:

- معركة الحقيقة والتمني!

تمتمت جوان بضعف:

- لا أفهمك!

أطالت فريدة النظر نحوها ثم أردفت ببريق استحواذي:

- الزواج هو طرفان، كل منهما يتصور خسارة الآخر دونه.. الزواج خطة وصمت وفوز للأكثر صبراً وذكاءً.. الزواج هو أن تتغاضى عن عيوب الآخر في سبيل احصاء المكاسب.. الزواج صفقة تحمل نسبة الربح كما الخسارة!

لا تدرك جوان أي امرأة تواجه.. الخالة أم العدو!..

من قطفت لها الأزهار واحدة تلو الأخرى من بستان الحياة؟.. أم من حرثتها كنبتة من أجل الجائزة الكبرى؟!

أرادت أن تلقي لها بآخر بالون اختبار، سألتها بوجع:

- إذاً هو شقاء؟

تحاشت فريدة النظر نحوها ثم توجهت نحو النافذة مُكمِّلة بيأس:

- يحمل العسل مرارة المذاق.

بارتها جوان بحِنكة الابنة:

- المرارة بيد الساقي لا في المسكوب.

وبمكر الأنثى واكبتها فريدة:

- والساقي تسحره أنثى!

ضحكت جوان هازئة:

- ليست أنا.

- ليست سواكِ.

عارضتها جوان بنبرة امرأة تود الهروب:

- يكرهني.. بل يكره ملامحك بوجهي.

- كره أفضى إلى معاشرة!

غضبت جوان.. بل صرخت رافضة:

- بل عقاب!

استدارت نحوها فريدة بنظرة مؤنبة، وبختها:

- لا تصدقي هذا الهراء.

رمقت جوان فراشها بحسرة ثم توجهت نحوه قابضة على الشراشف البيضاء:

هذا الهراء هو أحلك لحظاتي.
اقتربت منها فريدة ثم طوقتها بذراعيها جاذبة جسدها نحوها بعناق أمٍّ ونصح امرأة، همست بشغف:
- اجعليها الأفضل.
ابتسمت جوان بتمني مجنون:
- كيف؟
- بمكر الأنثى!
- أواجه بأس رجل حاقد.
تساءلت جوان في يأس..
- هي مجرد رغبة مدفونة يرى بها انتصار نفسه ويداوي مهانة سنوات.
- والثمن إذلالي!
- لن تعطيه الفرصة.
- ولن يكف عن المحاولة.
- الحياة كفيلة بإيقافه!
- وكيف يكون ذلك؟
- انجبي الطفل الذي لم أقدر أنا على الإتيان به!

- ماذا؟!
- كوني أم ولده.. كبلك بقيد الزواج ,كبليه بقيد الأبوة!
شعرت أنها بدوامة.. تود أن تصدقها لتتوسد الارتياح.. أو تهرب لتمتطي الخلاص..
أردفت بنبرة مخنوقة:
- اعطيه حياتي ورحمي ونقطة ضعفي !
بنبرة قاطعة كان رد فريدة:
- بل ضعفه هو.
ضحكت جوان باستهزاء:
- وهل كان طارق نقطة ضعف مختار؟
أجابتها فريدة بحزم:
- بل كان خطيئته .
- بل أحبك مختار لهذا تغاضى عن رفضك لطارق.
سخرت فريدة:
- أنتِ حمقاء.. مختار لا يحب سوى نفسه ,أنا مجرد صفقة رابحة.
نظرت نحوها جوان بدهشة متابعة:

- صفقة!

ضحكت فريدة باستهزاء:

- نعم صفقة.. جميلة بفراشه، وسليلة النسب بعالمه، ودرجة سلم يصعد عليها كلما احتاج واسطة لعلية القوم!

عارضتها جوان:

- علية القوم!.. هذا المصطلح اندثر من سنوات.

توجهت فريدة ببطء نحو حقيبتها، أشعلت سيجارها الرفيع بشموخ ثم توجهت نحو النافذة متأملة ما تنوي قريباً ضمه نحو ممتلكاتها لتردف بكبرياء:

- تلك هي الخديعة التي نبارك بها تواضعنا.. نتغني بمصطلحات واهية أننا كلنا سواء، رغم أن جميعنا يسعى لتبديل نفسه كي يصبح مميزاً.. نتفنن في تغيير ملامحنا وتمييز أجسادنا بألوان واهية لنبدو الأفضل، الأرقى.. نقذف في قلوب العامة بكلام واهي عن الحرية والعدل والمساواة، وبمجرد أن نستلم الدفة نقطن بقصور عالية خشية غوغائيتهم.. المصطلح لم يندثر، نحن من نقتله ونحييه وقتما نريد.

تأملتها جوان بصمت وكأنها تراها من جديد.. تبصر جانباً أشد ظلمة مما عاصرته معها..

أردفت ببحة حائرة:

- لم أكن أعلم أنكِ فيلسوفة، خالتي!

فيلسوفة!!..

نعم.. هي فيلسوفة، ولكنها لم تتذوق نكهة الأحبار ورائحة الكتب..

هي فلسفة الحياة، بل صفعات الحياة بوجه امرأة طالما استحقت الأفضل.

تأملت سيجارها الأنيق ثم نفثت دخانها بنشوة وهي تراقب الفضاء الشاسع أمامها.. كانت تشعر أنها الآن كغيمة ممطرة وحروفها زخات دامغة برأس جوان امتدادها الأنيق..

استدارت نحوها بابتسامة واثقة زينت ببريق حازم حروف شفتيها:

- ما جدوى الحياة دون تخطيط للانتصار وتذوق نشوته!.

الفصل الثالث

صباح آخر.. مكرر.. يقترب من أنْ يكون اعتيادي.

غصة مؤلمة تجولت بحلقها وهي تهمس:

ـ اعتيادي!

هل ستعتاد هذا الرجل وتلك الجدران؟..

تتذوق نكهة المعركة بتلذذ راغبة بالمزيد..

تلكأت قبضتها فوق معدتها حينما تذكرت أنها لم تتناول شيئاً منذ ظهيرة الأمس..

غادرتها فريدة وتركت نفسها فريسة للفراش، عله يبتلعها وترتاح،

ولكن لا...

ربما فريدة على حق..

ربما تكمن المتعة في الصراع..

النشوة في الفوز.. التملك..

وما نيل المطالب بالتمني، ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً.

طرقات مترددة على الباب قطعت سيل أفكارها، بالطبع ليس هو، فهو يتهادى لغرفتها كمالك وقتما يشاء.. يرسم فوق شفتيه ابتسامة واثقة ويتفرسها بعينيه وكأنها سلعة ابتاعها بإرادتها..

ابتسمت ساخرة..

نعم.. بإرادتها وبمباركة خالتها مصدر حنانها الأوحد، زهرة الأمومة المنقوصة التي حظيت بها.. تتنفس عبقها مع كل احتياج وتتجرح بأشواكها إذا ما تناست أمانيها واقع اليُتم.

زفرت بضيق مجففة ما تسلل من ضعف خارج بؤرة عينيها داعية من بالباب للدخول.. وكما توقعت كانت الخادمة من يوم أمس، لمحتها وهي تهرب بعد أنْ أعدت مائدة الإفطار..

امرأة تبدو في العقد الخامس من العمر، سمينة بقامة قصيرة للغاية ولديها وجه مبتسم بطلاقة غير اعتيادية.. أي امرأة تلك من تستطع أنْ تحتفظ بابتسامة صادقة بهذا المعتقل!!.

عدلت من خصلاتها المبعثرة وهي تستمع لأوامر شاه المعتقل.. ينتظرها على المائدة..

تذكرها وقتما شاء وطلبها وعليها التنفيذ..

ابتسمت للخادمة ببرود ثم صرفتها دون حديث لتغادر المرأة حائرة وتغوص هي بجسدها بمغطس السكون خاصتها..

كانت تعبث بالمياة كطفلة مشاكسة مستمتعة برائحة اللافندر ونشوة التمرد، لن تركض ملبية أمره ولن تهرب باكية حظها ولن تبتأس لإنسان أيا كان.

يالها من متعة!!

متعة اكتملت بظهوره العاصف!!..

قدمه التي ضربت الباب في حضور ذكوري أهوج علها تفزع..

ابتسمت بثبات فلن يفزعها شبه رجل!.

نثرت بعض الرغوة فوق ذرعيها بدلال غير عابئة بظهوره بخلوتها ثم أردفت باستهزاء:

- ألا تعني الأبواب المغلقة لك شيئاً!!

عدم اكتراثها أغاظه.. فهي ليست فقط امرأة طامعة، بل تحتاج إلى إعادة تأديب..

رمقها باستعلاء ساخر ثم أوصد الباب بالمفتاح واقترب حتى جلس على حافة المغطس ثم ابتسم بتحدي مجيباً:

- الأبواب المغلقة هي دعوى للإقتحام!

تصرفه كاد أن يتمكن من ثباتها ولكنها رغم ذلك تماسكت، نظرت نحوه بندية مردفة:

- بل هي دعوى للخصوصية.

ضحك ملء شدقيه مصححاً لها:

- لا خصوصية بين جدراني!

رمقته بتحدي مرددة عبارته بتعجب ساخر:

- جدراني!

شدَّ على حروفه بتوكيد:

- أنتِ بين جدراني.

تجولت ببصرها في انبهار مصطنع ثم أجابت بضحكة مكتومة:

- سجينة إذاً؟!

إبتسم بازدراء:

- لا أهتم بالمسميات.

واكبت غروره بتحدي متابعة:

- وبماذا تهتم إذاً، مولاي؟!.

ضحك ساخراً:

- بظهور زوجتي المصون على مائدة الإفطار، بل وتجهيزه من أجلي!

باستهزاء أجابته:

- ليس كل ما نتمناه ننالهُ!.

تمكنت منه.. شرار الغيظ بعينيه تجلىَ وأبصرت صورتها بحدقتيه مهزوزة، اقترب منها قابضاً على ذراعها حتى كاد أن ينتزعها من ستر معطفها الواهي..

- تودين إختبار غضبي جوان!

رمقته دون خوف:

- أو لم أختبره بعد؟

- لا.. ليس بعد!

ألقى بجملته في وجهها بهدوء ماكر ثم استقام متوجهاً نحو الباب مغادراً دون أن ينسى أن يوصد الباب خلفه بالمفتاح!

زعق ساخراً وهو يبتعد:

- استمتعي بجدراني... سجينتي!

****

كان ثابتاً كالصخر يعدل من هندامه وهو يفكر بها، تلك التي جاءت بلحظات جنونية لعالمه..

ليلة قرر فيها كل شيء وخط سطوره بتاني وقتما تعثر بغنيمة!.. زفرة من جنان الرحمة فاجأته..

غضب وثار وسب أحمقه المقابل بالمرآة، فجوان لا تختلف عن فريدة.. هن نساء لا يستحقن سوى القسوة.. والزواج لأمثالهن يجب أن يكون سنوات تهذيب وإصلاح، بل جزاءهن على خطايا لهثن وراءها في سباق مع الشيطان.

ابتسامة ظافر مرت على زاوية ثغره، كان يتصور أولى انتصاراته.. يرصد بأحلامه تلك الشعلة التي سيخمدها بتاني.

نعم سأطفأ شعلة غرورك بكل سرور..

فريدة.. جوان

وهل هناك فرق!..

كلتاهما عملة زائفة.. معدن ذهبي مهلك
الطلعة قاسي الملمس، وهو من سيكسره ويبعثر
شظاياه
وتلك هي نشوة إنتصاره..
قرر أن يتذكرها بعد ساعتين، تلك العزلة
الإجبارية ستلقنها درساً لا بأس به..
كان يخطو متلكئاً لغرفتها ولكن الهمهمة
بالداخل فاجأته..
رآها ممددة على فراشها تتصفح إحدى
المجلات وأناملها تتجول راقصة فوق خصلات
شعرها!
لم يستطع أن يخفي اندهاشه وهو يهمس:
- كيف خرجتِ؟!
سحبت من بين خصلات شعرها دبوس صغير
لتهمس وهي ترمقه بإعجاب:
- صديق المرأة الحقيقي هو من يتوسد رأسها
بإرتياح!
ضحك هازئاً:
- لم أكن أعلم أنكِ تمتلكين تلك موهبة!

اقتربت منه بندية حتى وازته ثم وشوشت
أذنيه:
- لا تقلق.. أنا امرأة مليئة بالمفاجآت!
قبل أن تتخطاه طوق خصرها بإحدى ذراعيه
فمنعها من المرور ثم همس بدوره:
- وأنا أيضاً.
****

رغم سمنة جسدها البادية كانت تتنقل
برشاقة فراشة بين جدران مصدر رزقها، طالما
تندرت مع حبيبها الراحل بهذا الإسم..
يقهقه رافضاً:
– ومطبخنا الصغير لما لا تطلقين عليه هذا
الإسم أيضاً؟!
وتبادره هي بابتسامة مترددة:
– سأفتقد مطبخي الصغير.
كانت آخر جملة لفظتها قبل اتخاذ القرار..
الإنتقال من مجرد خادمة لساعات، لأخرى
بدوام كامل تقضي أغلب أوقاتها بين جدران

غريبة.. تواسي نفسها بأنها مجرد مصدر للرزق ليهنأ منزلها الحقيقي بملذات الحياة..
تمتمت متذكرة وهي تجلي آخر صحن:
"حقيبة نجوى.. نعم نجوى تحتاج لحقيبة جديدة من أجل الجامعة"
لا تصدق مرور كل تلك السنوات.. الأطفال يكبرون سريعاً ليهرم الكبار دون وعي, يعدون عدواً علهم يظفرون بكل مباهج الدنيا.. ولا يدركون كم من فرصة تعثرت أسفل طوفان ركضهم.
فجأة ودون مقدمات كعادتها وبابتسامة عفوية توحي بأن صاحبتها امرأة لم تدركها هموم الدنيا صاحت:
- أريد المزيد من البندورة
تحركت فتاة صغيرة نحوها مسرعة تحمل بين يديها بضعة حبات من الفاكهة الحمراء, بإرتجاف وضعتها بين يديها وتراجعت مرة أخرى إلى الوراء مرتكنة لأحد زوايا المطبخ تراقبها في صمت.

شرعت في تنظيف حبات البنادورة وهي تكمل بغضب ساخر:
"أعشق مراقبة لهفة المتزوجين حديثاً ولكن أن أحضر الإفطار مرتين!!"..
صمتت متنهدة لتتابع حديثها المنفرد:
"المُدللة بالأعلى تفقده صوابه.. يعاند نفسه بساعات الليل, ولكن لا يلبث أن يهرع لغرفتها مع كل صباح دون نية للخروج"
مع جملتها الأخيرة رمقتها بتفحص, تلك الصغيرة التي دخلت لهذا القصر تسبقها ضفائرها..
"مكانها معكِ بالمطبخ"
تلك كانت عبارته المقتضبة وداهمها وقتها شعور الأنثى أن تلك الفتاة ليست هنا من أجل العمل, وكانت على حق!
أنهت إعداد المائدة ثم عادت أدراجها لتجدها على حالها.. منزوية على أحد المقاعد تتصفح إحدى الروايات في صمت لا تملك غيره..

تنهدت في حيرة وهي تصغي لحدسها مرة أخرى أم بالأحرى تساؤلها
متى ستتعرف جوان على الخادمة الخرساء؟!!..

****

الطعام كان به لذة غير اعتيادية.. خاصة مع تفحصه الغاضب لملامحها، كلما استشعرت نبض عروقه النافرة زادت بهجتها.
ارتشف القليل من قهوته ثم شغل نفسه بجريدة بالية، كان يعي أنها مستمتعة بغضبه ولكن عزاؤه أنها لا تدرك حقيقة مصدره..
لا تعرف أنه بتلك اللحظة التي حررت بها قيدها وتغنجت بدلال منتصرة فوق فراشها، أرادها.. وهذا ما أغضبه..
فآخر ما توقعه أن يرغب بتلك المرأة.. وكان اشتياقها لديه أصبح عادة..
وكان مارد ذكورته أبى تحدي امرأة، فابتغت فطرته كسرها.. ولكن حذاري، فجنون الرغبة هو أول عثرة غير محسوبة.
ضرب قبضته فوق المائدة بغضب نثر بضع قطرات المشروب الساخن فوق أصابعه..
زمجر بسباب لم تسمعه ثم توجه للحديقة ليصب جم غضبه على الحارس.. واختفى..
مررت أصابعها فوق ما تبقى من قطعة الزبد لتلعقها بشقاوة مهمهة لنفسها:
- الآن حان دوري زوجي العزيز!!
يُقال أن للمرأة عفويتها الراقصة، بدقيقتين توجز ملخص سعادتها.
بدأت بهجة الأصوات تتخذ طريقها لجنبات القصر حال رحيله.. وقررت الجدران الدندنة محتفية بغيابه..
تنامى إلى أذنيها وقع لحن قديم ورغم خفوته اخترق حواجز الصمت.. بأقصى أوقاتنا احتياجاً ننشد حميمية الماضي، نتشبث برائحة مألوفة من زمن ولى ونشتاق لصوت غاب عن عالمنا..
تتموج ابتساماتنا فوق أوتار معزوفة معتقة لتتراقص بهجتنا وكأنها نشوة سكير.
كانت تتمايل بعفوية طفولية، فهي لم تتقن الرقص الشرقي بحياتها ولم تسعى لذلك.. هي

هي تتلذذ بوقع الموسيقى كما يحلو لها وهذا الصباح كل شيء له مذاق مختلف، مذاق يشبه بذور ثمرة الجوافة.. قاسية وممتعة لحد الجنون من حلاوتها!
مسكرة بنكهة تشبه الفانيلا، تموجات شعرها تتحايل لتتفوق على خصرها الراقص..
لا يوجد بالعالم لحظة أفضل من مراقبة امرأة ترقص لنفسها، تتغنج بفطرة دون عناء الرتوش..
تهمس بعذوبة لباطن يدها وكأنها تلقي بتعويذة سحرية فتحيل نفسها فينوس.
رغماً عنه هربت منه ابتسامة..
هي متعة مراقبة أنثى جميلة.. فطرة لا يبغي الهروب منها حتى وإن قادته لما هو أعمق..
استدراك حالة أتى بصفعة، والصفعات لا تتطلب بطش قبضة غاشمة فقط.. بل قسوتها تكمن في خشونة الكلمات..
- أليس بالأحرى أن نستكمل هذا العرض الرخيص بغرفتي.. ربما يجدي!

تصلبت، جمود لم يكن بفعل وقاحته مثلما لظهوره..
تلكأت أناملها فوق قلادة تحبها.. تهديها الأمان.. تُشيِّد حولها صندوقاً أسود يخفيها عن العالم بلحظة فرار..
بدا صوته بعيداً كدوي صدى متلصص..
"تنفسي.. تنفسي ببطء.. جيد.. مرة أخرى صغيرتي"
كانت تشعر بالألم وما يضاهيه قسوة هو الخوف، حذرتها خالتها مراراً من التوجه نحو شتلات الزهور، بل أصبحت تلك الغرفة الخشبية حيث تنمو أوراق الحب هي جنتها المحرمة.. كانت ما زالت طفلة تخطو على أعتاب العاشرة، تبصر دنياها بعوينات وردية تغامر ببراءة من أجل نبتة من عبق الطبيعة.
صوته الرخيم عاد من جديد:
"ببطء.. نفس عميق.. حسناً يا بطلة لقد طهرت الجرح"

حلت قيد جفونها المتلاصقة لتبصر ذراعها النحيل خاليا من حمرة الخدوش، تنفست الصعداء وابتسمت بتردد لمنقذها، كانت تلك هي المرة الأولى التي تلمحه فيها عن قرب.. زرقة عيناه الداكنة كانت طاغية على كل شيء.. لم تكن رأت من قبل بؤرتين بنكهة من أعماق البحار، ناولها زهرة وهو يهمس بملامح تصتنع الجدية:

- لن أخبر خالتك، ولكن لا تجازفي بتسلق النافذة مرة أخرى.

همهمت بتذمر طفولي:

- باب الكوخ كان مغلقاً وكنت أود الحصول على زهرة وردية.

ضحك بشدة كادت أن تسقطه إلى الخلف مما أطلق العنان لضحكاتها أيضاً ولكنها ما لبثت أن استقامت في تحفظ بريء تنشد به الحماية من الغرباء..

صمت شارداً ثم قطب جبينه في جدية مصطنعة منشغلاً بشيء ما بين يديه دسه بين قبضتيها الصغيرتين قبل أن تغادر..

كانت تلك السطور هي أول مغامرة حقيقية لفتاة تفتقد العائلة، كانت بداية رحلة نحو ما أسماه..

الكنز!"

الدفء المحيط بخصرها اخترق لمحة من ذكرى وتساقطت جدران صندوق أمانها مع وقع همسه الدافئ فوق أذنيها:

- تهربين أم تتدللين!

كانت نبرته هازئة كتلك اللحظة الكاذبة بينهما..

أزاحت تملك قبضتيه ثم استدارت نحوه بابتسامة صفراء دون أن تنبس ببنت شفة..

لم يترك لها المجال لتتحرك ولم تفرز ملامحه أي انطباع طوال تلك الدقيقة المشبعة بصمت التحدي بينهما..

جذب أناملها بتفحص غريب ثم أردف:

- تعزفين البيانو؟

تنهدت بضيق:

- أتود مقطوعة تطربك زوجي العزيز؟!

تركها ثم توجه لطاولة الطعام ليجلس متكئاً بذكورية متعمدة ثم تابع بغطرسة مشبعة لمتعته:

- بل أود أنْ أتذوق عزفك المنفرد فوق مائدتي!

لم تدرك مسعاه بلحظتها وقبل أنْ تستفهم مقصده نمت إليها فكرته.. صرخت بعقلها.. ماذا!

الأحمق يودها أنْ تطبخ.. هي سليلة عائلة رستم تخطو بمسلك الخادمات من أجل عبق بصلة مبكية وبقايا ريش دجاجة!

أغمضت عينيها في رفض غاضب لتهمس بتنمر:

- مزحة ثقيلة.

انتفض ليعترض طريقها جاذباً ذراعها بعنف:

- اعداد الطعام لزوجك مزحة ثقيلة!.. ماذا إنْ طلبت منكِ غسيل قدمي؟!

رمقته بغضب كاد أنْ يروي عطش وجنتيها للبكاء، ولكنها ما لبثت أنْ استعادت ثباتها في عُجالة ضاهت سلاطة لسانها المقصودة:

- تريد الرقص.. والطعام.. وتبديد قذارة حذائك؟

تلكأت قبضته فوق رأسها مانعاً نفسه من جذب خصلاتها تأديباً ليردف هاسماً بثبات:

- نعم.

ابتعدت عنه متهادية بغرور وكأنها بصدد تقديم عرضها الخاص..

توقفت للحظة وهي تلفلف تموجاتها النحاسية حول سبابتها بتأني ثم واجهته بابتسامة منتصرة:

- الغانية للرقص.. والخادمة للطعام.. وبالنسبة ل...

توقفت وهي تطيل النظر نحو حذاءه باستهزاء ثم تابعت بكبرياء:

- والباقي نظفه بنفسك.

ناقض توقعها ولم يغضب، بل لم تهتز له شعرة وكأنّ تمردها عليه منتظر..

نعم هذا ما قاله حرفياً:
- لم أتوقع رداً آخر.
استدارت نحوه بغيظ مكملة:
- جيد.
استكمل بدوره:
- من دمية فريدة..
أغضبها.. أوقف قطارها وجذبها لأرضه،
همهمت بضيق:
- لستُ بدمية لأحد..
ضحك هازئاً ثم توجه لمذياع قديم عابثاً
بمؤشره المهترئ مطيلاً المرور فوق ضجة اللاشيء
بين المحطات، عندما وصلت لنفاذ صبرها
أردف بتباهٍ قاسٍ:
- أنتِ تشبهين هذا المذياع، جوان.. تلمعين
من الخارج كقشرة الذهب، وداخلك مهترئ
تماماً كمؤشره الذي يخفق العثور على النغمة
المناسبة حتى مع بعض المساعدة!
بلحظتها بدت حجرية، تلك هي المرة الأولى
التي يتسلل فيها بخبث لدواخلها.. تلك الطفلة
الجاحدة بين ضلوعها التي وأدتها لتعبر جسر
طموحات من عائلتها ولقنتها أسس الحياة..
عادت للتشبث بقلادتها الثمينة لتردف قبل
الهروب:
- أنت على حق.. ولكن أنا لم أفشل في العثور
على النغمة المناسبة، لأنني ببساطة أفضل
الصمت.
****
- فريدة رستم.. لا تتناسي موعد الغد.
كان صوت سعاد الرفيع يواصل معزوفة
ازعاجه المسائية كالعادة..
أجابتها بضحكة أرستقراطية لا يتقنها غيرها
وأنهت المحادثة رغبة في الهروب.
كانت تود الإنفراد بنفسها، بمراقبة بلورتها
الزجاجية..
فقط فاقدات الجمال هن من يتحججن بكذب
المرآة..
ذريعتهن مخطوطاتٍ بالية تواكب هواهن،
وأشعار رثة عن مآسي الغرور

وروعة ما لا نراه من جمال.
حمقى!..
المرآة فقط هي من تخبرك الحقيقة دون رتوش..
دون تجميل ودون تفسير.
فقط أنا كما أبدو.
ابتسمت بمكر وهي تحدث مرآتها بجنون لا يغادر جدران غرفتها..
"هل هناك أنثى بالكون أجمل مني؟!"
منذ كانت طفلة وهي تستمع لتلك الحكاية..
لا تدرك سر التفاف الحمقاوات حول سنو وايت، فهي فتاة بلا شخصية تركت نفسها لعبث الصدف ونجاة بقبلة رجل!..
البطلة الحقيقة بتلك الرواية هي ساحرة التفاحة!..
امرأة سعت لما تريد بكل السبل، لديها عقل وببساطة تحسن استخدامه ولهذا ستظل الأجمل وستختطف القبلة وقتما تشاء وليس بتصنع مخجل للنوم..

تباطئت أناملها فوق غصتها عندما تذكرت..
استحضرت بعقلها تلك الليلة، وتلك القبلة التي سعت نحوها ليتبدل بعدها كل شيء، تبدلت هي..
أصبحت بكل ليلة سنو وايت نائمة، تشدو قبلة لا تملك الجرأة لانتزاعها!..

خبايا الظلال

الفصل الرابع

يقال أن حرية السجين تتمثل في بؤرة ضياء، تتفرج زنزانته عن هالة تمثل له نافذة العالم والحب والسعادة والنشوة.. ولكن نافذتها هي تزيد من وحشة واقعها، تصفعها كل صباح بحقيقة مكانها أم ربما مكانتها!!

لمحته يتهادى بحديقته يوبخ هذا ويلوم ذاك ويسترجع أنقاض برجوازية اندثرت ملامحها... انفرجت شفتاها بسخرية.. البائس يتعثر فوق نهج فريدة، يكره طلتها ويستحضر غطرستها بحماقة!.

تكرهه.. بل تكره كل ما يحيط به، يظن أن بإمكانه كسر أنفها وتقويم سلوكها كآمر ولكن هيهات..

زفرت بضيق تواكب مع شعلة ماكرة مرت سريعاً بعقلها ثم ما لبثت أن تحول غضبها لابتسامة واسعة وهي تهمهم:

- زوجي العزيز ينتظر الغداء.. أمرك!!

كان قد أنهى لتوه مروره على الحديقة وتوبيخ البستاني والحارس وتوزيع المهام من جديد، لمحها تنزل الدرج بإطلالة مبتهجة..

بدلت ملابسها بسروال قطني رمادي اللون وبلوزة زهرية بلا أكمام ورفعت خصلاتها بعشوائية قاتلة وكأنها تجزم أن الفتنة خلقت مبعثرة والحمقاوات فقط هن من يسعون لتنسيقها!!.

ابتسم بثقة قصد بها اخفاء انبهاره ثم تابع بنبرة متعالية:

- بدلتِ ملابسكِ فقط أم رأيكِ أيضاً؟!

بادلته نفس الابتسامة بثبات ثم اقتربت منه حتى أغرقته بعبير اللافندر خاصتها وهي تهمس بجانب أذنه:

- كيف تفضل طعامك، حبيبي؟

رفع أحد حاجبيه في إشاره واضحة لاستهجانه، ثم قربها منه أكثر لتلفحها أنفاسه قبل كلماته متابعاً:

- دون سم، حبيبتي!!

لم تتحرك ولم يتأثر ثباتها باقترابه.. بدت كلوح ثلج متحكم حتى بقطرات البرد المنبعثة منه..

نظرت نحو عيناه بتحدي أكملته بشفتيها المتلكئتين أمام ثغره:

- عليك إذاً أن تختبر لتقرر!!

ابتسم بمكر دون أن يرمش له جفن.. أغرقها بنظرة غامضة تمكنت منها حتى أنها حاولت التملص من قيد احتجازه دون جدوى..

اصطنعت اللامبالاة متسائلة:

- ألا تود الطعام؟

صمت للحظات قبل أن يتابع بعينيه قبل لسانه:

- ربما عليَّ أن أتذوق السم أولاً!!

لم تدرك مقصده حتى انقض بشفتيه مخرساً كلماتها.. كانت تدفعه بمجاهدة لم تدرِ عليها سوى قسوة متمثلة بقبلة بدت لانهائية..

ابتعد عنها بعدما أشبع رغبته في تقبيلها والانتقام منها بذات الحين ليدير وجهه عنها منفرداً بلفافة تبغ أحرق دخانها كلماته:

- لا تتلاعبي معي جوان.. لست نداً لي

بجمود وأزى تحجر العبرات بمقلتيها أجابته بوعيد قبل أن تغادر:

- سنرى!

****

شعرت أن تصبب عرقها فاضت به أنهاراً.. كان يتجول بالغرفة بعصبية واضحة يملي أوامره عليها كقائد كتيبة.. لم تدرك كيف ستنفذ تلك الفرمانات، وكيف ستترك تلك السيدة الصغيرة وحدها لتتدبر أمر وجبة غداءه المنتقاة بعناية لم تطل سوى أظافرها!!.

لأول مرة وجدت نفسها تحاوره، تجيبه بلفظ غير نعم وأوامرك..

بريقه الغاضب صفعها قبل زعيقه:

- ماذا!

تلعثمت مكملة:

- سيد طارق.. السيدة الصغيرة لن تستطيع مواكبة كل الأعمال وحدها، ربما تساعدها خادمة أخرى ببعض المهام، كتنظيف اللحم أو

تقطيع البصل وخلافه و....
قاطعتها سخريته اللاذعة وهو يضجع على مقعده ضاحكاً:
- هيا أكملي يا زهوة.. أفيديني من نصائحكِ!
أخفضت بصرها في خجل:
- آسفة.
كانت زهوة أولى الخادمات التي استقدمها لقصره. بسيطة.. مكافحة.. لا ينكر اعجابه بتضحياتها من أجل ولديها. زهد لا تتقنه الكثيرات..
شعر بالضيق لتهكمه منها رغم أنها تعدت حدودها بمناقشته من الأساس!. صمت لوهلة قبل أن يستكمل:
- حسناً.. دعي معها واحدة من الخادمات.. واحدة فقط.
انفرجت شفتيها بابتسامة غير مصدقة لتتابع بفرحة:
- شكراً سيدي.
- انتظري...

عبارته الصارمة ألجمتها قبل أن تتحرك. للحظة ظنت أنه بدل رأيه. استدارت تزدري ريقها ليتابع بصك غاضب فوق طواحنه:
- آخر مرة تراجعينني, زهوة.. آخر مرة.
****
كانت واقفة تتجول في المطبخ بمقلتيها بحيرة أخفتها ببراعة زعيق واثق لخادمة مرتجفة.. تمنت لو أن لديها سم العالم لتدسه بطعامه, فقط لتكديره قبل هلاكه..
تحسست شفتيها بغضب علها تمحو أثر قبلته, بهجة اللحظة وعقابها بآنٍ واحد!..
كانت بشوش الوجه التي أيقظتها صباحاً بدأت تقترب بحذر مهمهمة بأدب عما إذا كانت تحتاج شيئاً عارضة لها إحدى الخادمات لمساعدتها..
طقطقت أصابعها بسخرية وهي تسحب أحد المقاعد ثم جلست بعبث توازى مع لهوها بأحد خصلات شعرها الهاربة. كانت الخادمات ترمقنها بإنبهار.. يتعجبن من

السيد الذي أرسل مليكته لعبق الزيوت والأبخرة بدلاً من احتواء أحضانه!!

كتمت إحداهن ضحكتها بعدما همست الأخرى بأذنها بتعليق بذئ... رمقتهن جوان بغيظ فهي تشعر بتندرهن عليها حتى دون أن تدرك تفاصيل الحروف. الوعيد كان ملاذها وراحتها..

"ستنال عقابك، طارق.. وعد مني ستدفع ثمن هذا غالياً"

قاطعت الخادمة زهوة أفكارها بهمس متردد:

- سيدتي.. ماذا تأمرين؟

رمقتهم بازدراء وهي تزفر:

- لا شيء.. ارحلن.

همت الخادمتان بالهروب ولكن زهوة أوقفتهما بصرامة متابعة:

- اختاري من تريدين سيدتي لخدمتك.

لم تنظر جوان نحوهما، استقامت متجهة للمبرد عابثة بمحتوياته ثم أردفت بتهكم:

- تلك الوجوه وجودها كافٍ لإفساد وليمة بأكملها!!

تراجعت زهوة للخلف في يأس وهمت الخادمتان الغاضبتان بالرحيل، ولكن صوت قرقعة عشوائية نبهتهن جميعاً، كانت تقف مرتجفة بشعرها الفحمي وارتباكها الطفولي المعتاد..

همست إحدى الخادمات بحقد:

- ربما تفضل مساعدة الخرساء، فهي لن تتوانى عن مشاركتها الطعام وما هو أكثر!!

لكزتها الأخرى مهمهمة عن لسانها الذي طالما أدر عليهما المشاكل..

لم تنتبه لهن جوان بقدر ما انتبهت لتلك الفتاة، كانت لها إطلالة مختلفة عن الجميع.. ثيابها بسيطة ولكن رغم ذلك بها موطن جمالي غامض بدا ملائماً لملامحها الهادئة، وجه مستدير وعينان حائرتان بسواد حالك.. شفتان رفيعتان وشعر فحمي مسترسل حتى خصرها.

شعرت الفتاة بالخجل عندما لاحظت تفرس جوان بها فأومأت رأسها في صمت بررته زهوة بلباقة:

- عذراً سيدتي.. فهي لم تكن تعلم بوجودك.

لم تنظر جوان نحو زهوة بل ظلت محدقة بالفتاة لدقائق قبل أن تتابع:

- حسناً.. أريدها هي.

برقت عينا زهوة في دهشة لم تستطع إخفائها متابعة:

- ماذا!! .. من؟!

أشارت جوان للفتاة في توكيد:

- تلك.. اصرفي الباقي.

تمتمت زهوة:

- ولكن..

أخرستها جوان بلهجة آمرة:

- ولكن ماذا؟.. هل نسيتِ من السيدة هنا؟

تراجعت زهوة في خجل:

- آسفة.. ما أقصده أن تلك الفتاة لن تكون ذات نفع فهي...

قاطعتها جوان بصبر قارب على النفاد:

- هي ماذا؟

ابتلعت زهوة ريقها متابعة:

- خرساء..

صمتت جوان لوهلة قبل أن تقتحم شفتيها ابتسامة ماكرة، نظرت ملياً نحو الفتاة قبل أن تكمل:

- خرساء ولكن ليست صماء، فعلى ما يبدو قرقعة فوضاها أفزعتها حالنا جميعاً..

ابتسمت زهوة بتردد وازته بإيماءة طاعة..

ظلت جوان للحظات تتأملهن.. إختبار شقي لهذا الشعور الممتع المسمى بالسطوة..

تأمر هذا، وتوجه ذاك، وتوبخ تلك، وتستنشق بنشوة عبق النفوذ حتى وإن كان فوق أجساد بائسات ركعن بفضل الحاجة.

استدركت عبث أفكارها المتمردة دوماً وأبداً لتملي أمراً آخر:

- اذهبي الآن.

لم تجد زهوة حيلة سوى الرحيل وهي تفكر في غضب مخدومها المتأجج على الجميع إذا ما عرف بأمر هذا اللقاء، وقبل ذلك غضبها هي إذا ما اكتشفت...

قبل أن تغادر أوقفتها جوان بعبارة واحدة:

- ما اسمها؟

أغمضت زهوة عينيها قبل أن تتابع بمجاهدة وتهرب:

- جوان!!

****

لا تدرك كم مر من الوقت وهي متجمدة تتفحصها، تدقق بكل خلية من جسدها.. بكل تفصيلة من ملامحها..

كانت مراقبة تحتوي احتقاراً غاضباً..

جوان..

يحضر خادمة على اسمها!!

لا..

وكيف سيهتدي أهل من على شاكلة تلك لاسم كهذا؟!!

هي لعبة حقيرة منه ومن خادمة حذائه السمينة..

يريد أن يكسر أنفها أمام الجميع،

بل يريد أن يبروز مذلتها، ويردم فوق كبرياءها باتربة حقده وعقده.

لا.. لا..

ضحكة هازئة تمكنت منها..

توقن هي ما يريد..

توقن رسالته، بل تحفظها..

اللئيم يخبرها أنها مثلها مثل الخادمة

كلتاهما هنا لماله..

واحدة بدوام جزئي وأخرى بدوام كامل..

عادت مرة أخرى لترمق المرتجفة بغضب.. هو يساويها بتلك اللاشيء!

تلك النكرة المتلعثمة بخرقة بالية، غضبها أخفى عنها تدثرها بطبقية فريدة التي سخرت منها لسنوات.. أي سخرية، بل أي هالة ملائكية تصر أن تحيط بها نفسها وكأنها تاج المثالية بغابة الخطايا!!..

مرة أخرى ذكرت نفسها بقسوة، هي من سعت لذلك.. هي من تزوجت برجل لا تعرفه ولم تنوي معرفته..

هي تزوجت بوريقات السعادة والآن تحصدها وجعاً.

لمست على رقبتها لدقائق قبل أن تدرك أنها خلعت القلادة، كم تحتاجها الآن.. كنزها الثمين.. إرثها الذي استحققته مرتين!

همست بضعف:

- أحتاجك أمي.

كانت الأخرى تقف مطأطأة في سكون، حمدت ربها أن نبضات قلبها القافزة دون صوت.. ليت قدميها الغبيتين لم تقدها للمكان بتلك اللحظة.. ليتها لم ترها.. ليتها لم تعريها بتلك النظرات القاتلة وكأنها تجردها من ثيابها قطعة قطعة ثم تلقي بها لساحة العرض ليستحقرها الجميع.

تهكم باكي ألجمها، وكأنهن لا يفعلن ذلك سلفاً..

وأولهم هو!

وكأنها ليست ماريونت المتعة والخطيئة والعقاب!!

وكأنها لا تستحق!

تخلصت الأخرى من عبء غضبها سريعاً وحولته لزعيق أمطرت به شبيهتها بالاسم بقسوة:

- خرساء ولكن أذناك تعملان أليس كذلك؟

أومأت الفتاة رأسها برهبة واقتربت من جوان لتتلقي الأوامر.. الفزع بعينيها أغضب جوان أكثر ولكن من نفسها..

شعرت أنها تعاقبها على خطأ رجل لا تقوى على مواجهته مثلما تريد، تبسط قوة زائفة فوق جناح عصفورة في حين أنها تخشى مجابهة الصقر..

جلست جوان ثم تابعت بنبرة أكثرة اعتدالاً:

- اجلسي..

بُهتت الفتاة لوهلة، لم تصدق أنها تدعوها للجلوس، فظلت واجمة بمكانها دون حراك..

فركت جوان ذقنها في عصبية واضحة ثم

أعادت أمرها بنبرة أقوى:
- قلت لكِ اجلسي.. لا أحب تكرار حديثي مرتين.
جلست الفتاة على الفور في تطبيق نموذجي للأوامر! وكأنها معتادة على الانقياد، طاعة الحاجة أقسى أنواع العبودية.
صمتت جوان قليلاً قبل أن تبدأ:
ـ ما يحدث هنا لا يغادر جدران المكان، فهمتِ؟
أومأت الساكنة برأسها سريعاً وبحركة عصبية توحي بتوترها، تابعت جوان بنبرة متوعدة:
- هل تودين اختبار غضبي؟
حركت إصبعها في نفي واضح وكأنها لا تود شيئاً بالعالم سوى تنفيذ مبتغاها..
ابتسمت جوان برضا ثم تابعت:
ـ إذاً دعينا نطهو لسيدك بعض التوعك!!
لم تستوعب الفتاة مقصد جوان التي تناست غضبها وغمزت بشقاوة فاتنة وهي تتابع:
- دعينا نكافئه ببعض المناعة!

في البداية لم تستوعب ما تنويه العروس الجديدة، وعلى قدر نفورها منها بالبداية على قدر انبهارها بتلك الفاتنة التي كانت تتجول بالمطبخ وكأنه إحدى صالونات التجميل!!.. بل بدا سبابها كمعزوفة ممتعة وهي تلعن وتسب من أحضر طارق للحياة عندما كسرت ظفراً ولم يشفِ غليلها سوى وضع بقاياه بطعامه! هذا بجانب كل ما طالته يديها من خضروات غير مغسولة، ودجاج مجمد لم تسعى لإذابته.. الوليمة كانت مبهرة ولولا سحر التوابل لقذفت برائحتها لأقرب حاوية قمامة!!.
انتهى الأمر بابتسامة واسعة من كلتيهما... وكان أكثر أوقاتنا متعة هي تلك اللحظات التي نتوهم خشيتها.. قبل أن ترحل جوان فوجئت بيد صغيرة توقفها..
للحظة ودت توبيخها وكأنهما الآن صديقات أو شبه ذلك، ولكن ورقة مجعدة أسكنتها.. كانت حروف بدائية وكأنه خط طفل مثابر ولكنه كان واضحاً للغاية:

- اسمي ليس جوان..

تفرست جوان في الورقة بدهشة لدقائق بدت كدهر، أي حقد تخفي يا طارق.. وأي غاية تنشدو!!.

استدركت نفسها بابتسامة متفهمة وغمزة وسمتها كلغتهما الخاصة..

رحلت وتركت الأخرى بقلب بهجة وذنب..

ذنب سيوازي حزنها مع كل ظلام..

دجنة وعزلة تسترجع فيهما ماضي قصير يشيب جيلاً بأكمله، وليس مجرد فتاة خطت أعتاب أنوثتها مهرولة، تسترجع وجه امرأة خلاسية الطلعة تغدو وتجئ بمنزلهم كالنخاسين... تستقبلها بشاشة الأم وخنوع الأب ولهفة الفتيات على الحياة، ترحل إحدى إخواتها ببهجة وتعود بثقل غامض ضاعف عمرها وافترس نضارتها.. وأخرى لا تعود، تنفرد بقرار البيع لنفسها وتثمن جسدها كما تشاء وبقوانينها الخاصة.

وهي.. هي الصغرى التي تجرعت مرارة الحقيقة على مر السنوات حتى اعتادتها.. داهمتها أوقاتاً لا تحوي سوى اليأس والرضا بالمكتوب، والمكتوب في عرف أمها هي غايتها دون نظر نحو الوسيلة.

ليلة.. شهور.. زواج.. ورقة استعباد للمتعة.. سبعيني أو عشريني لا يوجد فرق!!.. فميثاق عالمهم لا يلتفت لتلك التفاهات، وصغرى الفتيات شبت لتكون الأجمل.. والخلاسية شعرت بصيد ثمين ستنال من ورائه كنزاً لا بأس به، والأكواب الحمراء ستقرقع من أجلها تلك المرة..

كانت تراقبهم يسردون تفاصيل عن صيد جديد وزيجة جديدة.. كانت على أعتاب فوهة الإستسلام، مراهقة بعمر السادسة عشر بخمسيني من خلف الصحراء.. رحلة بتذكرة ذهاب دون إياب، فالعودة متوقفة على نصيبها مع مزاجية مسخ تجهل ملامحه..



ودت أن ترفض.. تصرخ.. تهرب وتجلب لهم عاراً ربما اعتادوه، ولكنها كانت أضعف من أن تهمس ولو بارتعاش ولولا صرخة مفاجئة لكانت بمكان غير المكان وزمان لا تدرك آلامه.. وكما شعرت أنها مستباحة لهم وقتما يشاؤون استغلت هي موت والدها وقررت أن تفقد النطق، عل الزبائن يهربون من المعيبة الخرساء!

كم تكره ظلمة غرفتها، فهي حافز خبيث لأشباح الذكريات.. صوت مفتاحه نبهها لدورها بليالٍ له وقتما يريد، هذا الغريب الذي لم يبال ببحتها المفقودة، بل هي من قادته نحوها دون هوادة..

دلف للغرفة كعادته دون أن ينظر نحوها.. يراقب ملامحه بمرآتها المتهالكة.. ويرمقها بأحقية سيد يعشق الظلام.. ثم يأمرها بصوته الأجش ككل مرة:

- اخلعي ملابسك!!

الفصل الخامس

ما بين عقل وجسد
دمية وحياة..
سلطة الحب ونشوة الارتياح..
بلحظة إذا ملكت حق الإختيار، فكيف ستختار؟
شعلة القوة.. الإرادة.. الرغبة.. والرفض..
والقول.. والصمت.. والرأي.. والجنون..
أم تفضلها وسادة!
ملجأ راحتك وقت الحاجة.. وملاذك بلحظة اشتهاء.
كيف تريدها؟!
زوجة أم صنف من الجواري!..
الأنثى هي فتنة الجمال وبهجة الصمت.. ألم يكن هذا صك الإختيار؟.. ألم يجذبه خرسها قبل كل شيء؟!..
هي دمية من لحم ودم.. ليس لها لسان صارخ ولا فم ثرثار.. حاضرة وقتما يشاء.. وبلحظة عزلة هي لا شيء..

مجرد هواء.
وهو كشهريار.. وقت الحاجة يصرخ..
"يا جارية"
يوقن أن هذا هو مفتاح السعادة والكمال والقوة وحتماً الرجولة..
ولم يهلك شهريار إلا بين دهاليز عقل شهرزاد، فتحول من آمر لطفل ينتظر كل ليلة حلوى الحكايات!!... خدعته ككل النساء باسم الحب فتوجها ملكة.. تأمر، وتنهي، وتقرر، وتنفي، ويصبح هو الدمية.. الوسادة.. ملجأ راحة كل فريدة!!!
بتلك الليلة أرادها جوان!!.. بل تصورها جوان..
وهذا ما أغضبه.. شاط عقله وتأججت نيرانه، فوريقات خطته ما زالت ببدايتها وها هو ينجذب لجسد مكرر، فتلك أنثى والأخرى أنثى!..
ما الفرق وأي حماقة تهذي بعقله؟!!..
أم لأنه لم يظفر بخضوعها بعد؟!!.

ما زلت تعاند وتغضب وتخطط.. تعتلي منصب العدو وتتأهب لمعركتها بطيش لذيذ!..
أنف شامخ يجب طحنه، علّها تفيق وتدرك مكانتها.. تتوسد الواقع بدلاً من أوهام كنز شهرزاد!

****

لأول مرة يجتاحها تردد.. هي من تملي قرارها بلحظة جنون وليكن ما يكون..
تُصدر حكمها بقوة قاضٍ وفتنة لعوب والتنفيذ واجب.
. ألم تتزوج لهذا بمختار؟.. ألم تختر بلعاب المتصابي اللاهث وراءها لتترك كل حلم وأمل ووعد من أجل واقع؟!.
الحكمة هي عصفور في اليد، وحكمتها هي إلتهام العصفور وإمتلاك الشجرة!!.
وفوق الشجرة كان عماد، شاب ووسيم وابن العم وعادي للغاية، ولكن بزمن ولىَ كان يجب أن يكون هناك عماد.. بوريقات مراهقة ترسم فوق جدران غرفتها قلوب وتخفي بدفاترها بقايا زهرة عبيرها الاشتياق.
عماد هو بطل الروايات بحلم كل فتاة، هو الوسيم والشاعر والعاشق.. هو روميو شكسبير، وفلورينتينو ماركيز، وجنون فان جوخ.
داعبتها ابتسامة وهي تتذكر أول قبلة مترددة فوق أناملها، وحروف "أحبك" مبعثرة بخطاب وردي يشدو رضاها..
ابتسامة حتماً غابت عنه وهو ينصت لقرار زواجها ونحره، هذيانه بقطع شرايينه تارة، وبالثأر تارة، وثباتها مودعة..
"حظاً سعيداً يا ابن العم"
ربما لو كانت عشقته حقاً ما تركته ولكنها عشقت عشقه، لهفته وهداياه الحمراء ونظم شعره الركيك..
دفء رقيق من المشاعر تزغغ به وجنتها كلما اشتهته ولكنه يتلاشى كسراب أمام عشقها الملموس، ألا وهو المال.
نثرت القليل من عطرها الأرجواني بنكهة الرمان، نفحة من الغموض ونبضة مخملية

مروة جمال

تتهادى فوق بشرتها متأثرة بالقليل من عبق الفانيلا. استنشقت عبيرها في رضا، ثم ألقت نظرة أخيرة على هيئتها..

حمرة شفاهها تلك المرة اختارتها لامعة، فهي تعطيها مظهراً براقاً وعمراً أصغر.. واليوم تحتاج لأن تكون أصبى من كل يوم، فعماد لن يتذكرها بعد كل تلك السنوات ليراها بمظهر خمسيني مثير للشفقة، ربما كما تتمنى خباثات خيالاته... سيرى فتنة متهادية فوق الأرض ليسقط جنوناً كما اعتادت حتى ولو نقش حروفه بخيلاء فوق دعوة معرض فن تشكيلي باسمه!.

دعوة أضرمت بداخلها نيران غضب غير مبرر، عماد الذي هرب منذ سنوات بعيدة متسكعاً من فشل لآخر، أصبح نجم مجتمع لامع!..

تصدرت صورته وزوجته الشهيرة أكثر من صحيفة بغضون أسابيع.. خمسيني بالغ الوسامة وشقراء بعامها الثلاثين تحمل بهجة طفولية حمقاء، زيجة مكررة بين فنان تشكيلي ونجمة سينما، والحمقى يبذرون تحت أقدامهما المال بدعوى الفن!

ابتسامة متشفية بعثت برمادها الراحة، هو طفيلي ليس أكثر يقتات على بقايا من هم مثلها، ستخطو لمعرضه بعنجهية دم أزرق وستبعثر بعض النقود على فوضى ألوانه!!.

كانت تخطو مسرعة يسبقها حثيثها المضني نحو إذلاله من جديد، أوقفتها زهرة..

عبق هو هواءه!

توقفت مبتلعة غصتها بنظرة تحذيرية تحمل وعيداً..

كيف يجرؤ على اعتراض طريقها بتلك الوقاحة؟!.. يمسك بعبيرها المفضل في إشارة واضحة ل...

قطعت أفكارها بلهجة متعالية:

- ماذا هناك؟

لم يجبها، كان يتأمل وجهها بإفتقاد فقد مضت سنوات تبدو كدهر لم يتأمل ملامحها فيها بهذا القرب.. رغم خبث خطين تحدى

رونقها ليلتفا فوق زاوية فمها. بدت خرافية..
خرافية بشكل مغيظ!
لو بيده الأمر لزهق روحها بزهوره..
لتركه الحنان لجروحها علها تشفي هوسه
نحوها رغم كل شيء..
- الملكات يتوجن بالأوركيد.
كانت نبرته رخيمة كعادته، حازمة بشكل
مخيف أم ربما غريب؟!!..
هو يمتلك تأثيره الخاص جداً الذي لا ينافسه
به أحد.. والجنون يتوسد مفرداته بعبثية
ذاتي..
فيما مضى كانت تعتقد أن وريقات وروده
محفورة بتعاويذ حروف لا يدرك معانيها
سواه وقلبها!
خيوط غضب تتشكل لتصبح لا شيء، مجرد هواء
زفرته وهي تثبت الزهرة بأعلى رداءها مختفية
بشبه ابتسامة وشبه تحذير!
لا تقترب أكثر ولا تبتعد.. فقط ظل كما
أنت.. موجود ولا موجود.. فرغم كل شيء
أتوسد بظلك الراحة!

****

كانت تمرر أصابعها على فنجان قهوتها بتأني
متجنبة النظر نحو وجهه ككل صباح.. لم
تتصور أن تختبر روتينية الزواج بهذه السرعة،
فحتى العراك أفضل من تلك السرمدية
القاتلة..
مر أسبوعان على مغامرتها الشقية بالمطبخ..
تصورت ثورته، بل وخططت لنشوة الإستمتاع
بلهيبها ولكن لا شيء!..
ظهر بصباح اليوم التالي بصحة ثور قطيع
متباهي، يزعق بخدمه كالعادة.. وحيًاها
بابتسامة باردة كقهوتها تلك التي زهدت
مذاقها..
بدت وكأنها بمعركة استنزاف، والخاسر هو
من يكسر حاجز الصمت!.
رنين ملح بهاتفٍ أنقذها.. لم تمر دقائق حتى
وجدها تتعثر بحماقة على السلّم تكمل إرتداء
حذائها على درجاته بطفولية ممتعة!

توقفت قسراً بفعل جسده الذي اعترض
طريقها مانعاً المرور والهواء بآنٍ واحد..
تمتمت بلامبالاة وهي تعدل من خصلاتها التي
لم يتسع لها وقتاً لتصفيفها بالشكل الملائم:
- ماذا؟
بحالة أصبحت تتكرر معه كثيراً بالآونة الأخيرة،
أطال النظر نحوها مطلقاً العنان لخياله
وكابحاً غضبه!
هل تعلم؟.. هل توقن تأثير عفويتها الحمقاء
عليه؟..
عندما تزوجها اختار نسخة مصغرة من فريدة..
شمعية بنسيم ثلجي، حتى أنفاسها تأخذها
بحساب...
بصغره كان يظن أنها تغفو بصالون التجميل،
وتهرع صباحاً لفراشها كالجنيات!!.. لتستيقظ
بأبهى صورة رامية تعويذتها الكاذبة بعين
أبيه، ولكن تلك فوضاوية لحد الإشتهاء.
قطع صمته بعبارة جازمة بدت كأمر:
- أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟

ابتسمت بثقة وهي تسخر بجوابها منه:
- للخارج..
عاد خطوتين إلى الوراء وهو يضحك بدوره،
فالضحكة بدت منقذتها بتلك اللحظة وإلا
ستتمزق تلك الخصلات بقبضته في لحظات!
توجه لطاولة الإفطار ثم ارتشف القليل من
قهوته قبل أن يستكمل:
- اصعدي لغرفتك.. لا خروج دون موافقتي.
أي رد مناسب لغرور هذا الأبله!.. كانت تضم
قبضتها بغضب وهي تتفكر بتلك العنجهية
الكاذبة التي يغلف بها ذكورته..
سمع شبه حروف تخرج من فمها وهي تتوجه
لباب الخروج غير مكترثة بشيء، قبل أن تصل
لمقبض الباب شعرت بقوة قبضته وفقدت
الشعور بذراعها..
للحظة ظنت
أنه اقتلعه وأنه لم يعد ينتمي إليها..
فحيح ساخن بعبق تبغه وازى زعيقه الحاد
وهو يسبها!..

يلعن من ربتها وأخرجتها لبيت زوجها دون أن تلقنها فضيلة الطاعة..

لم تشعر بنفسها إلا وهي تثأر لكرامتها منه بمقولة واحدة:

- اخرس.

قالتها وفقط ولم تخف حتى وهي تراقب فيض الغضب بعينيه، غضب غير مبرر هذا ما ظلت تخبر به نفسها.. هو مجنون بغضب غير مبرر. حرفياً بعدها انقلب عالمها رأساً على عقب، كانت تراقب هرولة درجات السلم من تحتها وهي محمولة فوق كتفه كالقطيع..

كانت ثوانٍ لا تحتمل التفكير مرت كطيف، انتهى بها ملقاة على فراشها مع توعد عقابي بدفع الثمن..

قبل أن يستدير ليتركها وجدت نفسها تهمس بيأس:

- وتلك ستكون ذريعتك تلك المرة!

رمقها بصدمة غير مدرك لما ترمي إليه:

- ماذا!

لم تستدر نحوه ولم تكترث حتى بتجفيف عبراتها السوداء، أكملت بنفس النبرة:

- حجتك لتقضي ليلة أخرى مع شبه الزوجة التي ابتغتها!

توجه نحو باب الغرفة ليصفعه بقسوة ثم عاد لفراشها ليتكأ عليه بأحد قدميه جاذباً جسدها نحوه بسطوة مكملاً:

- هل يحتاج الرجل لحجة ليكون مع زوجته؟

استدارت ترمقه من بين خصلاتها المبعثرة وهي تسخر:

- الرجل، ولكن ليس أنت!

رغم الصفعة التي يؤمن أنها تستحقها لا محالة ضم قبضته متماسكاً ليسخر منها بدوره:

- من ينبش عن الذرائع الآن جوان؟!

أجابته بثبات:

- أنا أنبش عن القبور لا الذرائع!

قطب جبينه ليتفكر للحظة قبل أن يتساءل:

- أي قصد ترمين إليه الآن؟

نظرت نحوه بتحدي ما قبل النحر قبل أن تتابع:

- النساء لسن بخادمات يا سيد.. وأنا لست أمك..

حينها انتهى كل شيء ولم يستمع المتلصصين بالخارج سوى لدوي صفعة.

****

حديث النفس.. تنفيس ربما لولاه لأصابنا مس من الجنون..

عبارات ترضي غرور متباهية بمرآتها، وحروف تتلعثم فوق لسان طفلة تهمس لوسادتها، وآخر ينفث تبغه مبرراً كل ألم وقسوة.. وها هي تتوسد فراشها بصمت منذ ثلاثة أيام..

حتى همهمة حالها لم تعد قادرة عليها.. بدا الأمر بالبداية ككواليس حلم وتحول الآن لزمناً ضبابياً..

خيالات تمر فوق رأسها بسرعة برق، تغدو وتجئ دون أن توقف تفاصيلها..

تتزامن أوقات مع طرقة باب لامرأة تحمل شبه طعام تعود به خائبة واطمئنان واهي من هاتف علها تجيب تلك المرة.

عادت للتقوقع من جديد مع هروب الشمس، تغمض عينيها وتلتف أصابعها بحزم فوق القلادة وتعود مرة أخرى لجدران صندوق...

- هل وجدتيه؟

بملامح طفلة عبوس تُنطِق الحجر تذمرت:

- لا أستطيع

ابتسم بهدوء متابعاً:

- بل تستطيعين.. لن يستطيع غيرك إيجاده.

برقت عيناها بأمل وهي تسأل:

- لما؟

اقترب منها مملساً على خصلاتها بحنان أبوي يعلم أنها تفتقده ثم تابع:

- لأنه ملكك، جوانة.

تذمرت مرة أخرى وعقدت ساعديها في رفض:

- اسمي جوان.

ضحك معانداً طفولتها:

- لا أفضله.. أفضل جوانة.

صمتت قليلاً علها تفهم مقصده ثم أباحت بسؤال يؤرقها:

- لماذا أنا؟

أجابها بتساؤل:

- لماذا أنتِ ماذا؟!

ابتلعت ريقها في تردد ثم تابعت:

- أنا من أرشدتني عن الكنز.. لما لا تأخذه أنت؟

ابتسم لها في رضا ثم سحب كفها ليتسود كفه الكبير وما إن فعل ذلك حتى بدأ يرسم فوقه بسبابته خطوطاً, للحظة شعرت بالذعر فصرخت:

- ماذا تفعل؟

- اقرأ طالعك!

- ماذا تعني؟

- بخطوط كفك يوجد كنزك جوانة.. كل منا لديه كنزه الخاص, وأنا لا أستطيع أن آخذ ما يخصك.

كانت صغيرة حينها ولم تفهم مغزى كلماته وحتى الآن لا تفهم اصراره على مناداتها جوانة..

تركته وقتها بسؤال أخير ولم يكن عن الكنز فقط سألته:

- ما اسمك؟؟

ابتسم براحة أفردت خطوطاً دقيقة تتميز بها عيناه ثم أجاب:

- راضي..

****

شيء ما بشروق الشمس يخبرها بتفاصيل نهارها.. ذهبيتها تبهرها, وغيمتها تقلقها, ويصيبها الضجر كلما استشعرت غيابها.

ارتشفت القليل من قهوتها الصباحية وهي تهمم فيما بدا حديث نفس:

"قارب الشتاء على القدوم, وها هي الشمس قررت الغياب"

انفرجت شفتا خادمتها الثرثارة عن ابتسامة حمقاء وهي تجيب دون دعوة:

- صقيع طوبة على الأبواب!

استدارت فريدة نحوها بلمحة قاسية، فآثرت الخادمة الهروب الفوري ولكن إعلان ضيف بالباب أوقفها، همهمت بتردد:

- أحدهما يود مقابلتك سيدتي.

أزاحت فريدة ما تبقى من قهوتها بغضب وهي تسألها:

- من؟

انسحبت الخادمة لتعود بعد دقائق باسم لم يفاجئها..

"عماد"

كانت حفلة المعرض رائعة بحق، رغم تعمد بصره تحاشيها إلا أنها كانت تشعر بجنونه المتابع لها..

اللوحات كما أرادتها لم تكن شيء يذكر، أقنعت حالها أن شهرته من نجومية جسد زوجته البلاستيكية، وأن التفاف الجموع من أجل السخرية قبل الانبهار..

وقعت شيكاً واثنان لبضع لوحات غير ذات قيمة وغادرت يسبقها خيلاءها مراهنة نفسها على ظهوره قبل أن ينقضي أسبوع.

وكانت على حق

استقبلته بابتسامة زينها هو بقبلة أرستقراطية فوق أناملها.. كان لا يزال يمتلك سحراً لا بأس به، ربما لو وازاه بثقله ذهباً فيما مضى لأصبحت له، نفثت عن رأسها أفكار الماضي وهي ترحب:

- عماد.. سعيدة لرؤيتك.

اختار مقعداً مجاوراً لها على غير العادة بالجلوس مقابلة من تحدث..

ظل يرمقها متأملاً لوهلة قبل أن يتابع:

- أنتِ قاسية فريدة!

لم تخفِ استغرابها من هجومه الغامض وقبل أن تتساءل تابع مسيطراً:

- حتى الزمن أركعته تحت سطوتك!.. أهناك من تنافسك جمالاً؟

تحولت دهشتها لابتسامة وهي تضحك بغرور مستهزئة:

- زوجتك..

أخرج لفافة تبغ أنيقة من علبة فيما يبدو أنها وسمت له خصيصاً ثم تابع بخيلاء:

- بولا جميلة.. بعد كل السنوات أستحق امرأة مثلها.

تحولت ابتسامتها لفتور أتبعته بتساؤل ساخر وهي تناوله بعض الشوكولا:

- وأنت هنا لتخبرني عن جمالي أنا وبولا!!

ابتسم برضا منتقم لكرامته وهو يرفض حلواها متابعاً:

- بالطبع لا.. ولكن ما حدث كان يجب أن أحتويه بنفسي.

بتلك اللحظة تاهت منه.. كانت تراهن نفسها على مجيئه راكعاً متغزلاً بعشق الماضي الذي لم يزد سوى فتنة، ولكن الآن هي غير مدركة لسبب وجوده، بدت منفعلة وهي تحاوره:

- عماد.. لا أفهمك!.. أوضح.

- الشيكات..

قالها على الفور دون تردد وكأنه كان ينتظرها..

ابتلعت ريقها مستغربة في عدم فهم، فأردف متابعاً بوجه مرتاح:

- يبدو أن هناك مشكلة بالشيكات التي وقعتها من أجل اللوحات.

عادت الابتسامة لوجهها مرة أخرى وهي تجيبه بنرجسية تعشقها:

- آه.. أنت هنا من أجل الحساب، أهناك مشكلة بالتوقيع؟

انفرجت شفتيه بضحكة صامتة وهو يراقبها.. لم تتغير، بل أن ردة فعلها تماماً كما توقع..

ودّ أن يصمت لدهر فقط ليستمتع بمراقبة تلك اللحظة النادرة، لحظة ما قبل الإذلال!..

اطفأ سيجاره بالمرمدة الكريستالية الموضوعة أمامه، ثم أخرج الأوراق بأناقة ليناولها إياها وهو يجيب بنبرة هادئة للغاية:

- المشكلة بالرصيد.

غابت ملامحها بلحظة، بدت أخرى.. تائهة..
حتى أنه لولا جرحه العميق الذي لم يندمل لتراجع على الفور..
سحبت هواء الغرفة بزفرة واحدة وهي تصحح معلوماته بغضب بين:
- لا توجد مشكلة بالرصيد.. راجع موظفينك سيد عماد.
ناولته الشيكين بغضب ولكن ما لبثت أنْ سحبتهما مرة أخرى بعنف كاد يمزقهما ثم أكملت بحدة:
- لا داعي.. سأحضر لك أموالك نقداً، يبدو أنه ليس لديك صبراً لروتين بنك.
هم أنْ يقاطعها ولكن كانت قد اختفت، عادت بخيلاء يفوق كل ما قد فات وهي تقذف فوق المائدة ببضع آلاف..
فرك عماد جبهته في حفظٍ عفوي لماء وجهه وهو يصحح:
- الخطأ عندي أكيد.
ثبتت نظرتها عليه وهي تلاحق عبارته بتوكيد:
- بالطبع.
سحب مقعده في تجهيز للمغادرة ولكنه لم يقرب النقود، فقط قرر توديعها بقبلة أخرى فوق قبضتها الناعمة ليهمس بخبث تلك المرة:
- سأنتظر منكِ الشيك بيوم آخر.. اعتبريها حجة لأستمتع بطلتك!
لم تجبه سوى بابتسامة صفراء وتلويح فاتر بالوداع مع نية مبطنة بإرسال النقود مع أحد خادميها، قبل أنْ يرحل عاد إلى الوراء خطوتين في حركة مسرحية بدت مرتبة منذ الأزل ليهتف بمكنون ادخره لوقت:
- آه.. كنت سأنسى، هناك من يترنح بصالات القمار بأوروبا وينتظر هفوة من شيكاتك، فريدة هانم..
استقامت لتلحق به مستنفرة بغيظ واضح تلك المرة، جذبته من ذراعه بشقاوة إبليسية افتقدها منذ مراهقتها لتتابع بتوعد:
- وضح مقصدك، عماد.. ليس لدي وقت لألغازك.

استدار نحوها ليهمس قرب أذنيها بفحيح منذر:

- زوج أختك الراحلة يحتاج طلة مولاتي، فهو لا يلبث أن يصرح لقريب كان أو غريب بفضائح سكر غير محسوبة..

يصرخ بقمة انتشاؤه مهللاً بأنها ليست إبنته..

لم ينتظر من ملامحها جواباً ولا يهتم.. هو يهتم فقط بلحظة قلق وغضب بحضوره، بمذلة تشفي كبرياؤه الذي تحطم فوق قدميها عشية رفض قربانه من أجل حبها.

غادر دون تفكير ودون حتى وعد واهي لنفسه بالعودة من جديد.. رؤيتها كانت كالسم والترياق بذات الحين، وربما يقتات على كلاهما لسنوات أخرى.. أما هي فلم تكن تشعر به ولا تفكر فيه ولا في مسألة النقود برمتها.. لم يشغل بالها سوى صرخة واحدة، صفعة من فم عجوز سكير أصبحت صالات القمار عشاءه وفراشه، ونبش الماضي هو قوت طمعه الذي لا ينفد..

أستندت بكفها على الطاولة ثم سحبت نفساً عميقاً قبل أن تهمس لحالها بغضب ككل مرة متمتمة بنبش من ماضي، سقطة وئدتها منذ زمن وردمت فوقها أشواك أزهار..

أخفتها بمهارة بستاني كانت عنده البداية وعلى يديه قد تكون النهاية..

"راضي"

****

آخر بدوامة تحياها علها تتفادى الصفعة بالمرة القادمة.

****

كان قد ارتشف نصف قهوته عندما لمحها.

مرت ثلاثة أيام منذ هجومه الرخيص فوق وجنتها. هو ربما كل شيء ولا شيء. ولكن تلك الصفعات تؤلم رجولته بقدر كرامتها تماماً..

تصنع عدم الإهتمام رغم أنه مر سريعاً بطرف عينيه على وجهها قبل أن يعود إلى مراقبة قهوته..

لم تكن متأنقة مثل ذي قبل. بل كانت أبعد ما يكون عن الأناقة!

ترتدي بلوزة قطنية بلون عاجي تنحدر أطرافها بإهمال فوق سروال بسيط من الجينز المهترئ. شعرها معقوص بإحكام بأطراف رطبة وعيناها تحمل تورم ليالٍ من بكاءٍ وسهاد. وشفتيها تتوسم النداوة في كوب الماء الذي لم ترتشف غيره على المائدة..

الفصل السادس

هلا ترفقين بي تلك المرة وتداري عني الحقيقة؟..

تضحكين بوجهي..

تسردين أكاذيب..

علني أبقى!!

زفرتها الحارة لوثت المرآة..

وتلكأ بخار حسرتها فوق زجاجها..

مرت الليالي عليها وحيدة تلو الأخرى..

يبعث لها مع حاشيته غذاء جسد مدمج بسم يخنق الروح..

يكتم أنفاسها ببهجة سادية ويتهادى فوق بقاياها كعاتٍ منتصر..

ودت بلحظة الهروب ليس منه فقط. بل من كل شيء.. من الماضي قبل الحاضر والأهم من المستقبل..

سخرية الإبتسامة ألمت شفتيها وهي ترمق الحجر الماسي الضخم المسيطر على خنصرها. مجرد قيدٍ

كانت تبدو بائسة.. مهزومة.. منطفأة دون بريق.

وهو.. هو لم يشعر بلذة انتصار!

قطع الصمت الذي كان ينوي أن يطيله، قرر أن يتبجح عله ينجو من طيش الشفقة المهيمن عليه..

عبث خيلاءً بساعة معصمه متهكماً منها:

- جيد.. يبدو أن الصفع تهذيب وإصلاح!

أسندت رأسها على ظهر مقعدها في أريحية غريبة.. وكأنه غير مرئي، كانت تبحر مع هوامش الأصوات حولها دونه.

خرير الماء بالحديقة كان حاضراً، وحفيف خُفْ إحدى الخادمات المتصنتة بفضول أحمق، وفوق كل هذا أنفاسه!!.. بوضوح كانت تدرك همسهة أنفاسه، وكأنه غضب تحدى كل لحظة ثبات إنفعالي مرت بها معه وكل هذا لظهورها مختلفة!

بوقت آخر ربما امتلكتها نشوة ولكن الآن..

لا شيء!!..

هي مهلهلة بفعل تلك الزيجة ربما مثله تماماً..

قبل أن يتابع همست بشرود دون أن تنظر نحوه:

- نعم.. أنت محق..

قالتها ولم تعطه الفرصة لإستكمال حوار..

فقط أغمضت عينيها في سلام!

سكون غامض استكملته بهروب متأن نحو الحديقة..

كان يراقبها من النافذة وهي تتنزه بوجه يبدو حالم!

وكأنها قررت تهيئة نفسها كفراشة تتقوقع بيرقة بأيام لتعود نضرة من جديد...

نعم كانت رغم شحوبها وحزنها في غاية النضارة!.. يانعة بشكل مغيظ.. لما عليها أن تكون زكية هكذا كقطرة الورود!!..

ضرب قبضته بالحائط معاقباً نفسه فرغم كل شيء فقد ضبط بجرم مغازلتها من جديد..

أمعن النظر مرة أخرى بوجنتها المعافاة.. الذنب الغبي تمكن منه ثانية وهو يتذكر صفعته لها وزرقة غضبه التي ظلت تعانيها لأيام, تلومه بصمت وترقص بقاياها فوق رجولة ضارب نساء..

همس لنفسه مبرراً..

"تستحق"

****

كانت هي بعالم آخر.. تبتسم بأسى لحالها وتلملم وريقات أزهار جافة دون تخطيط..

لم تستطع مغادرة الغرفة إلا عندما تعافت بشرتها.. فلم تعد تمتلك سوى بقايا كبرياء يصر هو على بعثرته.

قبل أن تستدير راحلة دون وجه استشعرت ذقنه الحادة تنغز بكتفها وهو يحتضنها من الخلف بحنو غريب!..

شعرت باختناق يتملكها.. دفء ولكن خانق..

رفضته ببحة مثابرة:

- ماذا تريد؟..

لم يجبها على الفور.. مرت على زاوية شفتاه أصعب ابتسامة ثم همس بصوت رخيم:

- صفعك مجدداً!

لا تنكر أنه تمكن منها والتقط من عقلها باقي كلمات الكون, فهي زوجة لغاضب ومجنون!!..

قبل أن تفكر بجواب أم ربما هروب أردف باقتراب أوقح:

- ربما لأنه لا يجب عليكِ أن تكوني جميلة هكذا!!..

لحظتها لم يكن أمامها بُداً سوى أن تستدير.. تتخلص من تملكه بحجة الزواج والسطوة وتواجه ملامحه العبوس وهي تتصنع الغزل..

كانت تود أن تسخرمنه.. تستهزئ به وتصرخ مستردة كرامتها..

"لا يليق بك ثوب العاشقين"

ولكنها صمتت..

لا شيء..

واجهته وصمتت..

استقبل لوم عينيها واستقبلت غموضه..

نظرته كانت أغرب ما يكون!!.. فلا هو عشق، ولا رفض، وليست رغبة، وليست خداع..
كان يبدو وكأنه ينظر داخلها ويستحضر أعماقه.. وكأنها سفينة تائهة دون شراع وقرر هو اغراقها دون عودة!!..
أشاحت بصرها في ضعف لترحل، ولكنه استوقفها بتملك أغضبها.. همت لتتمرد بزعقة صاخبة ولكنه سبقها بحروف متزنة:
- ما رأيكِ بهدنة؟
تجمدت لوقت ثم تملكتها ابتسامة.. لا بل ضحكة صاخبة لحد جنونه!!..
بدت طفلة.. حمقاء بخصلات معقوصة تملك أوسع ابتسامة توقظ بداخل كل رجل شغفاً لا يدرك له نهاية.
تخطه راحلة:
-أنت لا تصدق!
ابتسم بثقة وهو يسحب زهرة نبيذية اللون ليثبتها بين خصلاتها بعد أن حل قيدها لتصبح مبعثرة كما يشتهيها..

نظر خلفها بارتياح ثم أكمل فوق وجنتها بقبلة وهمس:
- وكأن هناك شيء قابل للتصديق،
قبل أن تفكر بجواب لرومانسيته العبثية، أوقفها عطر تعرفه جيداً وصخب راقٍ لامرأة تكتم غضباً:
- اتركينا وحدنا، جوان.. فلدي بعض الكلمات لزوجك العاشق!
****
نظرة واحدة لوجه فريدة توضح كم الغضب الذي تحمله بتلك اللحظة..
ببساطة انسحبت.
ليس فقط لتفادي نبرة غضب فريدة التي تعرفها جيداً وتحفظها عن ظهر قلب، بل أيضاً للهروب منه..
فتلك الحالة المتوسدة لغيمة وردية تمطر فوقهما أزهاراً، لا تليق به.. زفرت مستريحة مع ابتعادها..
لم تترك الحديقة فما زالت بحاجة لهواء

العالم، ولكنها هربت من كلاهما بمسافة آمنة!

راقبت فريدة رحيل جوان المتخاذلة بازدراء، لم تمر أسابيع وتمكن منها.. الضعيفة!

نفثت جوان وحماقتها عن رأسها وهي تتمتم لحالها:

"ليس بوقتك الآن"

بابتسامة مكتومة صدى صوته مقابلاً لها:

- عفواً!!

رمقته بنظرة نارية ثم اتبعت:

- العفو، أنت من ستطلبه بعد قليل!

ضحك بثقة وهو يجاورها واضعاً كلتا يديه في جيب بنطاله بغرور ومواجهاً قصره العتيد:

- أنا لا أطلب العفو من أحد، فريدة.. ليس هناك أحد يستحق اعتذاري.

كتمت غيظها وهي تخرج سيجار أنيق، لوث دخانه هواء جوان النقي قبلهما..

أردفت دون صبر لمجاراة حماقة مراهق لم يستفق من عقده بعد:

- حسابي البنكي، طارق.. إياك أن تعبث به مرة أخرى.. هل تفهم؟

تصنع البراءة وهو يتساءل:

- أي حساب؟!.. أنا لست بطفل لأعبث بأشيائكِ... أمي!!

قذفت بغضب بقايا لفافتها فوق الحشائش لتهرسها بحذائها الثمين مدمرة معها بعض الحياة الخضراء، وربما جزء من كياستها وهي تتوعده بحدة:

- لا تعبث معي، طارق.. لقد حادثت الشركة وعلمت أنك أوقفت ضخ أموالي الشهرية.. انتظر قليلاً حتى تنضج يا صغيري، فأنت لست نداً لي بعد.

كانت تنتظر منه غوغائية موروثة، وتمتلك الرد والتهديد والوعيد رغم ضعف موقفها. ولكنه صمت..

ببساطة صمت مبتسماً..

معتذراً.. مقبلاً ظهر يدها بأرستقراطية مفقودة ووعد بمعاقبة المتسبب بهذا الخطأ الأحمق. وقبل كل شيء بنقش دعوة على شرف

مرورها لحفل بعد بضعة أيام..
حفل كبير بمناسبة مرور شهر على زواجه بكريمة عائلتها العريقة..
قدم احترامته ورحل, ليعطيها بعض الخصوصية مع زهرته إن أرادت!
رحل وترك بعقلها منسوج أفكار..
فهو لا يتحداها فقط..
بل يريها أنه بلحظة متحكم بكل شيء..
أموالها.. ومكانتها.. الإجتماعية.. وجوان!

****

هربت من حضور كلاهما.. فريدة بـهالة غضبها الغير منتهي, وهو بهيامه المصطنع..
كانت تود التنفس بحرية مبتعدة عن قيد أشباه.. نعم أشباه,
شبه زوج وشبه أم..
بقعة قادتها قدميها لها مصادفة..
ركن منزو ينشد العزلة ولكنها عزلة كذوبة,
فرغم الأغصان المتلاصقة محاصرة مقعد حجري وكأنها تشدو مغازلته, إلا أنه رغم كل شيء ظاهر للعيان.. للهواء.. والماء.. والورود..
ولكل عين تهوى مراقبته
كانت هناك أخرى.. تتوسده في أريحية غريبة, قدمين صغيرتين حررتهما من قيد حذاء متهالك وأذاقتهما برودة الحشائش, مقلتين متحفزتين ببهجة طفولية تتنقلان بين صفحات رواية متهالكة وكأنها الجنة وعنان أطلقته لخصلات فحمية الفطرة.
ضحكت ساخرة وهي تراقبها وتهمس..
"تلك التي يطلق عليها "جوان" تتعثر بحذاء سندريلا مؤمنة بخديعة الحب!"
مبتسمة بصدق وكأنها البطلة, بل تغمض عينيها بشفتين مترددتين في انتظار قبلة يسبقها ويليها غزل عاشق!..
كانت بعالم آخر.. مختلف.. وردي ويحمل حلماً لن تستطيع تحقيقه, ولكن لديها على الأقل اختيار معايشته ولو فوق رمال خيال.
داعب حلمها حضور أنثوي!
في حضرة رواية كتلك لا رغبة حقيقية بأنثى

أخرى..
الخيال مشاكس، يوهمها بحضوره وابتسامته وقبلته وحنين وأبواب جنة على بعد خطوات.. جنة حقيقية وليست مجرد جدران مظلمة بخفاء!
ارتجفت منتصبة كتمثال حجري خائف..
وتراجعت خطوتين مبتعدة عن المقعد عندما لمحت مخدومتها وغريمتها بذات الحين..
صمتت جوان لوهلة وهي تراقب الخرساء التي تعثرت بها منذ أيام، تحملق فيها في تحفز وتكور بين قبضتيها سطور رومانسية حالمة..
استنشقت الهواء بأريحية وهي تجلس بالمقعد ذاته ثم سألتها:
- ما هذا؟
ترددت الفتاة قبل أن تناولها الرواية، خائفة منها هي وبنفس الوقت مبهورة بها..
لا تكرهها.. رغم أنها تشاركها بنفس الرجل!!.. لا ليس نفس الرجل، فبطل حلمها مجرد سطور على أوراق روايات وهي من توهم نفسها كل ليلة أن طارق سيصبح مثله!
كانت جوان تتصفح الكلمات بازدراء..
الحماقة لا تفرق بين فتاة مدللة تنتظر كلمات العشق، وأخرى أوجعها العوز فوجدت ضالتها بحروف تمنحها أمل كاذب..
أمير، وحسناء، وحظ مبتدئة تجد الحب والنشوة والثراء..
ابتسمت للفتاة وهي تمر على حروف عاشق..
" أنتِ عالمي ودنياي.. موسيقى الواقع التي أتوسدها كل ليلة وعبق الأزهار الذي تجمع بامرأة واحدة، حبيبة واحدة.. معشوقة واحدة ولي.. فقط لي"
وينتهي الأمر بقبلة!
"يالـ الحماقة!!!"..
نطقتها بغضب اجتاح ملامحها وهي تقذف بالكتاب في الهواء دون مبالاة بشيء، نظرت نحوها معاتبة أم ربما متخذة دور معلم قاس بأصول الحياة:
-تصدقين هذا الهراء!

تراجعت الثانية في ألم من لا تملك شيئاً سوى الصمت ومراقبة خيالها محلق بالهواء، كانت تود أن تصرخ.. تغضب.. وترفض..

"لا تسرقي أحلامي"

ضحكت جوان.. بجنون ومن القلب!

صباح مجنون وليكتمل الجنون بغنوة..

كانت تدندن ببحة خلابة كلمات بعثت بنفسها الراحة، فرنسيتها الطليقة لم تفهم منها الأخرى شيء، ولكن أعجبها وقع اللحن الذي اغتصب منها بخبث ابتسامة..

Encore des mots toujours des mots
Les mêmes mots
Rienque des mots
Des mots faciles des mots fragiles
C'était trop beau
Bien trop beau

Maisc'estfini le temps des rêves
Les souvenirs se fanentaussi
Quand on les oublie
Caramels, bonbons etchocolats
Merci, pas pour moi
Maistupeuxbien les offrir à uneautre
Qui aime le vent et le parfum des roses
Moi, les mots tendresenrobés de douceur
Se posentsur ma bouche maisjamaissurmon Coeur
.Paroles, paroles, paroles.
.Paroles, paroles, paroles
Paroles, paroles, paroles
Paroles, paroles, paroles, paroles, paroles
Encore des paroles quetusèmes au vent

مروة جمال

تتحدث عن رجل لا يجيد سوى عذب الكلمات.
يخطف عينيها وقلبها بهراء!
تجزم أنَّ الأمر انتهى والأحلام والذكريات أيضاً..
تترفع عن ما يقدمه من غزل.. وتطلب ببساطة
أنْ يمرره لأخرى تهوى عبق الحروف..
فهي لا تنخدع بكلمات ساحرة تمر على اللسان
دون القلب..
في النهاية ستظل..
مجرد كلمات يقذفها في الهواء..
ظلت تغني تدندن.. لنفسها..
وكأنها تحذر نفسها قبل أي أحد
من حماقة غزل كاذب.

****

لولا الأهم ما تجاهلنا المهم
هكذا ظلت تبرر لنفسها الرحيل..
لم تتحدث مع جوان سوى بضع دقائق، وبخت مظهرها المريع وضعفها الجلي ورحلت بكلمة واحدة..

"كوني ملكة بيوم الحفل.. كوني امرأة تستحق الأنوثة.. وأنتِ تستحق المقل"
أسندت رأسها بمقعد السيارة تاركة للسائق الحرية في رقصة السلحفاة دون توبيخ تلك المرة، ما زالت عبارات عماد تنفث السم بأذنيها.. الخطأ تلك المرة غير قابل للتفاوض.
يجب أنْ تقوم بزيارة لهذا الأحمق.. يجب أنْ تلقنه درساً..
درساً قاسياً من فريدة رستم.

******

وهكذا وبعد عدة أيام فقط كانت بطائرة محلقة نحو عاصمة الضباب.. وكأنَّ أمثاله يستحقون الوجود بالمدينة الملكية!!.. وعلى نفقتها بأغلب الوقت..
استقرت بفندق الريتز كارلتون فهي لا تحبذ غيره.. هناك بقلب بيكاديللي تشعر بالمكانة التي تستحقها خاصة بين أروقته الكلاسيكية، دفء عتيق يكتمل بمظهر ثري من أروقة القرن الثامن عشر..

مواقد مزخرفة بإتقان وثريات كريستالية من زمن الملوك..
لوحات فنية ملهمة تتوسد جدرانه، وأسقف عالية تقدم لساكنه المساحة التي يستحقها، حقاً لا شيء يضاهي انعكاس ظلال التاريخ فوق كل ركن من أركانه..
فهو نكهة الأمراء كما يرددون.

أخذت حماماً دافئاً ليريح بشرتها من عناء السفر، ثم تناولت غداءً بسيطاً بمثابة وجبة فاتحة للشهية..
فقط قطعة من الخبز المحمص مع طبق من الحساء الطازج، لولا انشغالها لأطالت زيارتها واستمتعت بتسوق باهظ، ولكن هذا لم يمنعها من المرور السريع على قصر باكنجهام لتنفرد بطلة تتمناها والتنزه القليل بأوكسفرد ومقاهيه..
كانت قد انتهت من قهوتها عندما حان موعد لقاءه، المكان لا يستحق لقب منزل فهي مجرد بناية حقيرة تحوي غرفاً متواضعة تبدو بأسقفها وكأنها أحد ملاجئ الحرب العالمية الأولى..
ازدردت ريقها وهي ترمق استقبالها من خطأ أختها الفادح كزوج، خاصة وهو يتهالك على مقعد وطاولة تحمل خمراً ودواءً وبقايا طعام ..
خطت للغرفة مرغومة ثم بحثت عن بقعة ملائمة لتجلس مواجهة لثرثرته التي بدأت بحقد منتظر:
-أخيراً جاءت الملكة!
أخفضت بصرها متأملة قاذورة أرضيته..
أحد انقاض العائلة المندثرة، ماجد رستم ابن ابن العم وزوج الراحلة التي لم ترث من أمهما سوى الطيابة الساذجة..
تتذكر جيداً وضعه المالي الذي ظن أن الحياة ستعود لأوصاله بعد زواجه من الابنة الكبرى لكبير العائلة، ولكن اكتشف أن أمانيه لم تطل سوى جمال زائف وحتى لا يرقى لفتنة

أختها..
ظل يقتات على ما تبقى من إرثه ومجوهراتها ولولا نقود مختار التي بعثرتها هي عليهما لانتفض الجوع ببطونهما كالرعاع.
كررت لفظ الرعاع بعقلها بتأنٍ وهي ترمق لحيته الغير مشذبة وبصاقه المقزز.. وهلة تلو أخرى، وكأنه آفة مرض وجهل يجب سحقها!
اعتدلت للخلف واضعة ساقاً فوق أخرى في هدوء راقٍ أتبعته بمجاملة ساخرة:
- تبدو أصغر سناً ماجد.. أهي حمية غذائية أم انتقام الزمن!!
استدار نحوها بمقلتين يشوبهما الاحمرار وبصر فاقد لأهليته، كانت ملامحها مشوشة..
لو علم بموعد زيارتها المبجلة لضاعف جرعته من الفودكا علّه لا يرى وجهها أبداً.
سحب لفافة مهترئة من تبغ رخيص نفثه بوجهها باحتقار أتبعه بتهديد فاجر:
- نقودي فريدة.. وإلا سينطق لسان السكير الهزيل بمحظور لن تتحمليه..

اقتربت منه غير عابئة بشيء ولمست فوق رأسه بحنان ساحرة من زمن مظلم وهي تهمس:
- عزيزي.. أنا لا أحتمل غضب زوج أختي الراحلة ووالد جوان حبيبتي الصغرى!!
ضحك بسخرية كادت أن تودي بحياته..
قبل أن يعود للهراء اللذيذ بالنسبة إليه كانت قد وضعت أمامه كوبين من العصير مستكملة حديثها بشكل طبيعي للغاية!
-حمداً لله وجدت أن لديك شيئاً صحياً رغم أن المبرد يحتاج للتفجير..
ارتشفت القليل من العصير، ثم ناولته كوبه ومدت كوبها نحوه من أجل قرقعة إنجليزية شهيرة، أردفت بابتسامة:
-صفحة جديدة..
واكبها وارتشف كوبه وهو يهمهم:
-كما أنتِ فريدة.. مصلحتك فوق كل شيء..
الآن تتهادين كقطة ماكرة لتكسبي رضاي.
انقلبت ابتسامتها لتتحول لنظرة قاسية وهي تنهره بلطف:

-وسعيك لفضيحة هو من النبل إذاً!
ضحك مستهزئاً:
-لقد مات النبل منذ سنوات يا ربة الصون و...
قاطعته بصرامة:
-اخرس.
كان منتشياً بفعل غضبها.. حتى أنه أنهى على ما تبقى من كوبه جرعة واحدة، ولم يلاحظ شبه الإبتسامة التي ارتسمت على ثغرها. ترنح محاولاً الوقوف وهو يزعق بسعادة:
-بل أنتِ من ستخرسين فريدة.. لقد كنت أحمقاً لسنوات أصطنع دور أب حنون مقابل حفنة من جنتك، الآن أريد حقي دون مفاوضات أنا لا أتسول منك.
استدارت نحوه بملامح مبتهجة وهي تسحب حقيبتها ومعطفها الأنيق متمتمة:
-أنت لست سوى متسول.. وليس للأبد.
ضرب قبضته على المائدة التي اهتزت محدثة دوياً زجاجياً رافضاً وهو يتوعد:
-أين تظنين نفسك ذاهبة؟!.. هل جئتِ لتتذوقي معي مشروب ماسخ الطعم؟!!
ظلت ثابتة لوهلة أفزعته خاصة مع هذا البريق الشهواني لعينيها وهي ترمق كوبه بانتصار..
عدلت من خصلاتها في مرآة قريبة ثم أفردت عباراتها بإيجاز مفزع:
-أي رجل عاقل يتقبل مشروب ماسخ الطعم ويتجرعه بثقة!
تمتم متراجعاً بوجه شحب لفوره:
-ماذا؟!
اقتربت منه غير عابئة بشيء خاصة مع قدميه اللتين ارتختا على المقعد دون نية للمثابرة، حاصرته بفحيح مسكر النكهة ولكنه قاسي التأثير:
-رجل بسنك يجب ألا يلجأ لمنشطات من تلك!.. هل تعلم خطر تناول مريض القلب لتلك الحبوب خاصة بهذا الكم!!
بدأت أنفاسه تهرب منه رويداً وبهستيرية فكك أزرار قميصه العلوية وهو يجاهد:
-أيتها اللعينة ماذا وضعتِ لي؟!

تأملته بشغف:

- جيد.. ذعرك سيسرع الأمر.

مد قبضته ليجذبها من شعرها بشقرته التي بدت مستفزة بتلك اللحظة ولكنها ابتعدت عنه في خفة متهادية كراقصة باليه في انتظار اسدال الستار..

ابتسمت له بحنان مودع وهي تكمل:

- بلغ أختي تحياتي!.. هي ستقدر اهتمامي بهذا الأمر!!

كان وجهه قد بدأ فعلاً بالتغيرّ وثابر ليترك المائدة ويصل لدواءه ولكن دون جدوى..

هي ذبحة صدرية غير قابلة للمفاوضة!

وقع أرضاً وهو ينظر نحوها بتأنيب حاقد فأخفضت بصرها نحوه مراقبة رحيله وهي تهمس بدرسها القاسي:

- لقد طلبت لك غانية بشعر أحمر كما تفضلهن، رائحة تلك المدينة كل شيء بزر هاتف.. أعذرني كان يجب أن أنهي العرض بطريقة ملائمة، ولكن لا تخف فجوان لن تعلم سوى أنك عانيت من ذبحة صدرية وفقط، الأسباب بيننا عزيزي!!

لا تدرك كم مر من الوقت حتى غادر..

رحل بهدوء وهي تراقبه بدم بارد وأزيز قرقعة حذاءها وهي تحوم حوله هامسة بتأني متوعد:

-إلا جوان.. إلا ابنتي!.

****

خبايا الظلال

الفصل السابع

أغمضت عينيها بطائرة..

هامت فوق جناحين، وأغرقت حالها بذكرى قصر وزوج هارب وخطيئة في كنفها اجباراً..

لوم من عائلة تندثر..

ورحم يأبى بذوره، فيغيب أمل الوريث الآخر مرة تلو أخرى..

تخدع نفسها والجميع، وهي من تتجرع موانع حتى لا تلتصق بها ذريته!!

يكفيها الالتصاق برجل تكرهه حتى وإن ابتاع لقدميها الورود..

الورود!!..

هي تعويذة شقائها..

وآخر ظهر بعالمها من عدم بوقت كان الغياب هو بطلها المغوار..

الزوج المهاجر بصك رسمي يسدد ثمن الانفتاح والجشع، وتوحش أمثاله بعد مساواة بائسة..

"سنوات وينتهي الأمر"

كانت تلك هي جملته الشهيرة، بل والمكررة على دوام خمس سنوات قضاها هارباً من مكيدة وأوراق مدعي اشتراكي بحجة حق الدولة!!

غاب وأصبح يطلبها كل حين كالبغايا، كلما تذكر عبقها واشتهى لوم بنت الباشا السابق، التي لم تفلح برجاوزية عالمها في انتشاله من تلك المعضلة وكان لأمثالهم سبيلاً بهذا العفن.

بين ليلة وضحاها وجدت نفسها مع طفل متذمر يشبهه..

هربت..

كانت تحتاج لهواء يومي بعيداً عن هذا العبث..

تهرب كل صباح لنادي وأصدقاء وأقاويل عن الأم الهاربة، أم ربما شبه الأم..

لا تبالي..

وبجوار صبيحة شمس رحلت متأنقة بثوب هادئ وخصلات مصففة بعناية على جانب وجهها...

الحديقة بفوضى وكعب حذائها أبى مغادرة
تربة ندية بغير موقعها، ولولا ذراع من العدم
لاختلطت عاجية بشرتها مع التربة الطينية في
فوضى لذيذة..
تذمرت وزمجرت بزعيق وغادرت دون النظر
لصاحب الذراع الحاملة لخصرها..
"أغبياء..
فوضاهم لا تجلب سوى أشواك، فحتى الأزهار
غير قادرين على رعايتها!"

أوقفتها عبارة بصوت رخيم.. صوت استجرأ ليرد
على زعيق مخدومته:

- إن الأيدي التي تصنع أكاليل الشوك هي
أفضل من الأيدي الكسولة!

استوقفتها العبارة..
رزانة الحروف وسحر المقولة التي لا تتوازى مع
عامل بطين أرض تملكها!

تلكأت لأول مرة بحياتها لتنظر هناك..
نحو العالم الآخر الذي يقبع تحت إمرتها،
نظرت.. وليتها لم تنظر.. وليتها لم تقابله..
وليتها لم تصطدم بجنون أزهاره وأشجاره على
حدٍّ سواء..
"راضي"
المقولة كانت لجبران خليل جبران، من وقت ما
أطربت أذنيها وهي تسعى لتذكر قائلها حتى
عرفته.. وعرفت راضي..
تلكأت أمام غرفة زهوره الخشبية بعد أسابيع
بذريعة الإطمئنان على الحديقة..
بتلك المرة استوعبت ملامحه، لم يكن وسيماً
بالمعنى التفصيلي، فهو قمحي اللون بفعل
شمس الظهيرة، وقوي البنيان بفعل فأسه
ومجرافه، تسبقه عيون بزرقة بحر ثائر وخصلات
رغم الكد مشذبة بعناية..
بعكس المرة السابقة لم يتبجج بالنظر نحوها
بل عاد الى الوراء في أدب مصطنع ينتظر
رحيلها، وكأنها سترحل!

للآن لا توقن سر انجذابها لتلك الغرفة، لعبق الورود المختلط بأنفاسه.. لحديثه عن زهرة الأوركيد كلما رآها ولنظرة عينيه التي لم تختبرها مع رجل سواه..

كان شاباً من أسرة قروية أرسلته كغيره من أجل الرزق..

رغم مجانية التعليم لم ينل منه سوى القسط الذي ضمن له مكاناً بصفوف البروليتاريا...

انضم لبعض الحركات اليسارية والماركسية وآمن بالإشتركية وهلل بثورة ولعنها بعدما تذوق عبودية اعتقال من قائديها..

زهد كل شيء ووجد لحاله ملاذاً بكتب وورود وامرأة طلتها توازي نفحة من زمن الأميرات..

بصباح جرحت إصبعها وبكت.. بكت كثيراً.. بكت بحرقة..

الجرح مجرد حجة لتنتفض عبرات سنوات..

رغماً عنه ملس على رأسها.. ذراعها.. ظهرها! كانت لحظة عابثة انتهت بهروب من تظن نفسها قوية!

همس بأذنها قبل الرحيل إن عدتِ فسيتعدى الأمر العبث العذري..

وغابت أسابيع هاربة من شيطانه، وعادت بشيطان أقدر لم يتكلف عناء اقناعها بمبرر الخطيئة.

بل خطيئة وانتهى الأمر!

****

"ليس هناك من يستحق عبراتك وإن استحقهم فهو لن يكون بمسببها"

جابريال جارسيا ماركيز

كانت تقف هناك محدقة بمرآة.. ترسم رغماً عنها وجه عروس!..

طوال الفترة الفائتة عجزت عن تفسير حميميته المفتعلة، يبتسم ويتحدث بهدوء.. يمر بجانبها مبطئاً في مغازلة مسموحة، ويقرع الباب قبل أن يتقدم لغرفتها. إنه حقاً تقدم

ملحوظ!!
لولا تلك المكالمة التي أنقذتها كان سيظل هناك يتبجح حولها كما يشاء عابثاً بقدرتها على تحمله..
هاتف وغضب أعاداه كما كان بملامحه العبوس, كما اعتادته..
أم ربما كما أصبحت تفضله!
زفرت وشهقت وأعادت النظر نحو مظهرها من جديد, ثم أخيراً قررت الخروج لضيوف الحفل وقبلهم صاحب الدعوة..

****

"تأخرت"..
كان يزمجرها لنفسه كلما سألته إحداهن عن العروس, وأخرى تهمس بتشفي "غابت الملكة" وغيرها تتمتم بخبث..
"آل رستم يفضلن بهجة انتظارهن"
وكانت تستحق الإنتظار..
لمحها تتهادى بثوب كريمي اللون ينسدل من فوق كتفيها متهادياً بمكر حول منحنيات جسدها ليكسب قوامها رشاقة لا ينتظرها..
خصلة شاردة هي المتراقصة فوق إحدى أذنيها, والباقي مرفوع بإجبار فتنة جيد.
إلتفف حولها, وبدت واضحة ابتسامتها المرتجفة رغم دروس التمثيل من ربيبتها..
إلتقت بعينيه فبدت أكثر حدة وهروباً لم يسعفها من تملكه, خاصة عندما دللها بقبلة فوق أناملها وأخرج من جيب سترته عقداً ماسياً طوق به رقبتها ببطء أتقنه وفحيح لم يدركه سواها وأخرى تراقب بتحفز من بعيد:
"دعينا الليلة ننسى فريدة"
كانت فريدة قد وصلت لتوها مخترقة الحضور الملتف منتبهاً فيما يبدو لما هو أهم من قدومها, رغم تكدرها إلا أنها ابتسمت برضى عندما لمحت جوان..
تذكرها بنفسها وشبابها وطيش ممتع وقلب يرتجف لقرب رجل أرادته..
ضعف ومر وانتهى الأمر ووئدته بصك رسمي باسم أخرى..

بأمل أخت عقيم وزوج طامع وملجأ لإخفاء
فضيحة غير محسوبة.. أمسكت بطنها بألم
وهي تلمح همسه.. قبلته الماكرة واسمها
المتراقص على شفتيه وتحدي عيناه وهو ينطقها
بتمهل:

"فريدة"

تعالت موسيقى موزارت وجذبها لرقصة
افتتاحية، تحاشت قربه متمتمة:

- ألا ترى أنك بصدد المحاكمة بجرم الـ over acting

ابتسم هادئاً وهو يعبث بحبات عقده الماسي:

- أقترب منكِ لأنني أريد، وأرفضك وقتما أريد!!

ابتسمت راضية:

- وقاحتك أسلوب حياة!

تسائل مستهزئاً:

- اعتدتيه؟

زفرت براحة:

- فوق ما تتصور.

جذبها أكثر، قصد أنْ يؤلمها.. يطحن عظامها

تأديباً:

- كل امرأة تتمنى مكانك.

تأوهت ليس من ألم قبضته، بل من ألم أكذوبة
تحياها بصك زواج، همست ببحة تجاهد
البكاء:

- وأنت تتمنى كل امرأة سواي!

قالتها وابتعدت ورسمت ابتسامة لضيوف
وحفل وخالة ترقب باهتمام من بعيد..
رسمت رضا كي لا يسألها أحد لما وكيف..
رسمت سعادة لتكتمل الليلة.. والتي تليها..
وكل ليلة، حتى يأذن القدر لها بهروب..
من كل شيء أصبحت تشدو هروب.
من همس خدم تعثرت به منذ أيام..
عن خيانة السيد!!

****

إنه فن الصمت، لحظة لا تتحركوا لقد قررت أنْ
أبهركم قليلاً..
أنا المايم..
أنا الممثل..

أنا المهرج..
أنا المقلّد..
أنا الضاحك.. والباكي.. والبهلوان..
ولكن دون سلطان!
أنتم السلاطين أعزائي المشاهدين..
وأنا... أنا؟؟
أنا الملك..
بعالمي ملك..
بفني ملك..
وبهوسي ملك..
ملك البانتوميم..

كان قد لوث وجهه بغبار بياض مختلط بحدود سمراء، ضخم حاجبين وحدد عينين واصطنع ضحكة شفتين.

ارتدى بذلة من سواد، أنيقة بيهجة بابيون.. دقق بلمعة حذاءه، الآن هو مستعد..
توجه بخطى ثابتة ليظهر من خلف ستار، ولكن

استوقفته سمراء
كانت تتشبث بحاجز وتتلصص بخجل زهور..
تخفِي ابتسامتها بيد صغيرة وتحرك خصرها في خجل مواكب لنوتة شوبان.
ضحك وضخ صوته فوق أذنيها فهو سيمتنع عنه بعد قليل:
- سندريلا!
استدارت وليتها ما فعلت، لو لمحتها شقراء الأمير لتركت لها رحاب الرواية راضية..
مقلتين مرتبكتين حد الضياع وسواد يداعب خصرها بمكر..
أي امرأة تمتلك تلك الخصلات هي خارج بؤرة المنافسة.
تفحصته بتردد..
شاب.. لا.. بل رجل.. لا.. لا.. هو شاب فيبدو أن عقد عمره لم يتخطى الثلاثين، أسمر هو ووسيم وله غمزتين تداعب ابتسامة.. طويل لحد لا يسمح لرأسها بمجاورة كتفيه، تراجعت للوراء منفعلة من غزل نظرات لم تختبره كثيراً

ولكنه لم يرحل بل خلع سترته الأنيقة!!
تلعثمت بل كادت تنطق فاضحة أكذوبة خرسها..
ماذا سيفعل وأي نوع هذا من ضيوف مخدومها قرر ترك الحفل والتحدث اليها؟!!..
اقترب منها غير مبالي، فالأنثى الجميلة لحظة.. والجنون لحظة.. والسحر لحظة.. والبهجة لحظةزز وأحمق من يفوت كل هذا!..
ابتسم بثقة، يدرك هو سحر ابتسامته.. سألها:
- ما اسمك؟
لم تجب وظل يلتهم ملامحها بنظره..
حاولت الهروب، ولم يجد فهو يحاصرها بحماقة طفل يقفز يميناً قبل أن تصل لليمين، ويحتجزها يساراً باقتراب يورد وجنتيها، يضحك بصوت غير مبال ويردد:
- لن ترحلي قبل أن أعرف اسمك، وليحضرنا الجميع لا أبالي!!
مجنون..
ظلت ترددها بعقلها تعثرت بمجنون، لذة لا تود الهروب منها!.. رغماً عنها فضحتها شبه ابتسامة..
تجرأ وأعاد السؤال بهمس رجل وليس طفل مازح:
- اسمك؟
نظرت نحوه بارتباك، تفكرت وأشارت لفمها دون خبرة.. أي متحامق سيظنها تطلب قبلة..
ضحك لعبث خياله ثم فكر ثم شرد ثم انتابه حزن عندما فهم..
سأل مرة أخرى:
- لا تتكلمين؟
أومأت بضعف وحل الصمت ضيفاً من جديد وصرخ داخله
"يا ملك الصمت.. يا ملك الإيماءة واللمحة والإيحاء، أميرتك الصغيرة خرساء!".
قطع السكون:
- تسمعينني؟
ابتسمت وأكدت بحركة رأس أصبحت تلازمها، تخلص من شحن أمانيه وتجول ببصره حتى لمح

مقعداً خشبياً..
جهزه لها كملكة، أجلسها وانحنى وكأنه
على مسرح من أجل عرضه..
تتساءل عيناها من يكون!..
ويجيبها بفنه بجنون جسده الذي لا يملك
غيره
أنا المايم..
أنا المفكر..
أنا الأخرس بتلك اللحظة...
وأنتِ الضحكة..
أنتِ الضوء الحقيقي..
بظلام عالم لا يدرك سوى صخب الظلال.
وبدأ عرضه..
بدأ فقرة أخرى من فنه الذي اختزلوه في ابتسامة
"البانتوميم"

****

اقتربت الضوضاء حولها من حد الاختناق،
فكرت جدياً في الانسحاب من هذا المسرح
الصاخب..
طارق اختلف، تلون كلياً في مجاراة كاذبة
لمظهر وشكل اجتماعي.. فريدة تناست كل
شيء ورسمت كعادتها ابتسامة ثلجية
والصديقات يهنئن بوجوه مصطنعة..
تفكر وتلوم حالها ليتها اكتسبت صديقة
حقيقية من قبل، ربما استمعت لسكونها..
ربما صرخت بجوارها ارحلي جوان.. ربما
احتضنتها بصدق!
اقترب منها باحتضانٍ لخصر، هي إشارة جلية
لامتلاك..
افتعلت ابتسامة أسكنها هو بتحذير:
- إنفعالك جليٌ للجميع.. أتقصدين عزيزتي؟
لم تفكر، ناطحته:
- أتبالي عزيزي؟
ابتسم وحزنت..
الآن تسحرها ابتسامته!

اعتادته أم ماذا؟

أم هو هوس ضحية بجلاد!!..

تركته ورحلت، ولكنه استوقفها..

استوقف عيناه تحمل شبه حنين..

شبه اهتمام.. وشبه غضب..

جذبها مبتعداً عن الجميع لهواء شرفة

واحتجاز ضد عيون..

ولحظتها بكت..

انفجرت بكتمان صارخ.. لا يدرك من تلعثمها

شيء، ولا يفهم سر انجذابه لعبرات حقيقة.

هي لحظة..

لحظة جنون.. وسحر.. ورغبة.. وحب..

لحظة تنكسر بها كل القوانين..

لحظة تختزلها في قبلة!!

قبلة وانتهى الأمر!!.

****

كانت قد ملت الجموع، تريد الانفراد بجوان وتفكر كيف ستبلغها بأمر الأب الراحل الذي اخفته حتى الآن.

تمنع كاذب أوقفها عندما لمحت رجل وامرأة بشرفة..

لحظة ودت بها أن تسحبها من خصلاتها لتبعدها عنه رغم تمنيها لحميمية الأمور من قبل..

ولكنها حميمية أرادتها بتوقيع جوان.. بتحكمها وقوانينها، وليس بأمر رجل يجذبها لسطوته كلما شاء!

شرارة غضب حركتها وتوجهت نحوهما باغتياظ، تدعي أنها وصلت بلحظة مناسبة قبل أن يتسبب ابن الخادمة بفضيحة مقصودة لزوجته..

سخرت بتعبير قاسي:

- اصعد بزوجتك لغرفة طارق، هكذا علمتنا الأعراف!

ابتعد.. وانتفض.. وغادر حلم معها على صوت واقع كاد أن يتناساه! رمق كلتاهما بضيق وغادر حتى دون سخريته المعتادة..

توقفت جوان متحسسة جبهتها.. وجنتيها.. شفتيها وخصلاتها وكل مبعثر وضع بصمته عليه، وقبل أن تفيق جذبتها فريدة لغرفة بعيدة قبل أن يلمحها أحد..

وبختها.. صرخت مؤنبة لخضوع تكرهه، وتهور غير محسوب من طفلة وحاقد.

لملمت باقي خصلاتها بثبات يتحاشى عاصفة، عدلت الثوب الذي عانى تمزق! وحاولت بمجاهدة مداراة فوضى العبرات..

همست قبل أن تتركها وترحل:

-أنتِ من زوجتيني لحاقد!

****

كان الحفل قد قارب على الانتهاء وبدأت الهمسات تزداد مع غياب المضيفة..

بررت فريدة بكذب ووجه مرسوم عن صداع مفاجئ وارهاق للعروس، ورمقته بحدة مهددة أن ينطق بغير ذلك..

لم يكن به طاقة لجدال فدميتها سحرته بتعويذة خرقاء ستهلكهما معاً..

زفر وانسحب لمقابلة ضيف، تميمة لا ينوي المراهنة بشأنها الآن خاصة عندما وصله خبر الآخر.

اضجع على مقعده وحيا مضيفه بنظرة ثاقبة وهو يرحب:

- مرحباً... راضي!

كان الآخر قد تأنق، منى حاله برؤيتها اليوم فمنذ تزوجت لم يلمحها..

حُرم من بهجة صراخها كرضيعة، وحُرم من نبرة طفولتها بلفظ أبي، والآن حُرم من طلتها كعروس بين ذراعيه..

ابتسم ببساطة كعويناته التي أجبرها عليه الزمن ثم رمق الرجل الذي اقترن بابنته بتفحص اتبعه بعبارة رزينة:

- مرحباً بك أنت سيد طارق.

ناوله طارق علبة سجائر رفضها في أدب

وجملة نافذة:

- أنفاس الورود لا تحتمل عبق نيران..

ضحك طارق ساخراً:

- طالما كنت فيلسوفاً.

ابتسم راضي:

- لست سوى عراب أزهار.

لمعت عينا طارق فتابع:

- محظوظة الأزهار إذاً.

لم يعقب راضي فأعقب طارق:

- وزوجتي أيضاً محظوظة.. وأنا أريد أن أوازي حظها بهجة.

ابتسم راضي بتردد:

- السيدة جوان رقيقة كالورود.

أومأ طارق بخبث:

- بالطبع.. ومن أجل هذا طلبتك.. أريدك أن تصمم لها هنا ببيتي حديقة مميزة تضم كل أنواع الورود.

صمت راضي قليلاً ثم تساءل:

- لماذا أنا؟.. هناك من أكثر مني شباباً

ومهارة لأمر كهذا.

تأمله طارق لبرهة قبل أن يستكمل بدهاء:

- وأفقد عراب أزهار!!

قبل أن يجيب راضي تابع طارق بلهجة صارمة:

- زوجتي تستحق الأفضل سيد راضي.

أومأ راضي:

- بالطبع.

نفث طارق تبغه بحرارة قبل أن يلقي بآخر أوامره:

- وفريدة هانم وجوان لن يعلما عن الأمر شيئاً إلا بعد انتهاء الحديقة, وإلا ستفسد لي المفاجأة.

لم يعلق راضي ولم يُزد طارق عما قال..

انتهت المقابلة كما أراد

وخطى العراب كما يطلق على حاله أولى خطواته نحو القصر..

نحو جوان.

****

ليتها ترحل..

ليتها تهرب بذورها..

ليتها تتشبث ببطل رواية قفز لعالمها من خيال..

ليتها تملك الجرأة لتظهر بموعدٍ أمطره فوق أذنيها..

ليتها تسعد دون السقوط بحفرة الخيانة!

انتهت أفكارها مع صوت مزلاج باب..

متشبثٌ بأسطورة سيد عاد من جديد ولكن تلك المرة بوجه ارتعدت له فرائصها!!

بملامح رجل لا تعرفه..

بأسطورة سُكنى أوهمت بها نفسها يوم أن اعتبرته نجاة..

يوم أن وجدت بزواج مظلمٍ بديل الخطيئة..

يوم أن قررت أنه لا اختيار سوى من ورقة الإجابة وعليها القرار

دخل زوجها لغرفتها متسللاً, وبغضب ظنت أنه بالبداية لأجلها وليتها كانت على حق!

هي دورة الطبيعة..

ضوء يعقبه ظلام.. وظلام يليه ضوء.

انتهى الحفل.. وانتهى العرض.. وانتهى الرقص فوق أوتار الحياة.. وانتهى كل جسد فوق فراش..

رحلة فوق وسائد أحلام ومباغتة ضمير بخطايا يوم.

استقرت فوق وسادة بخيوط حالكة وتذكرت غمزتين اقتحمتا عالمها وسط ظلام..

ضحكت حتى أنهكها الضحك مثلما أنهكتها الحياة..

نسخ الجميع بلذوعة مبهجة بما فيهم طارق, ولم تضحك عندما رأته طارق..

هي لا تريده طارق.. ولا تتمناه طارق.. وليتها عرفته قبل طارق..

وليتها عرفته قبل أن تولد وتتدثر بمصير لا تستسيغه..

وليتها استمرت بحلمه دون استيقاظ..

وليتها.. وليتها.. وليتها..

مروة جمال

الفصل الثامن

يزبد ويرعد.. يهدد.. يزمجر
يتمتم بتعاويذ قاتلة..
تلك التي تخبرها ليلة تلو أخرى أنها ليست هناك، ليست بقاموسه سوى خادمة بأجرة..
لا.. لا..
هي ليست أكثر من مومس شرعية!
وهو يعلم جيداً أنها كانت سترتضي الدور حتى دون ورقة مهلهلة بصك زواج!
انكمشت في الفراش..
ظنت بخيابة أن غضبه من أجلها، ثورته غيرة عليها.. وأن هناك من أخبره بتسكعها مع رجل غيره ولو للحظات..
تبخر الأمل والخوف بعد دقائق..
كان ينفث جحيمه بسيجار، يهمس باسمها ويتوعدها ويتوعد نفسه..
"جوان"!!
شرد مؤنباً حاله ثم توجه نحوها بنظرة..
تأمل لم تختبره معه سوى الحين.

منذ وطأت قدميها القصر لم تلمح له ابتسامة، حتى في أكثر لحظاتهما حميمية لم تدرك انفراجة ولو طبيعية بين شفتيه..
عابس على الدوام!
ليته يتحسس جبينه ليدرك مدى اقتضابه..
ليته يترك العنان لقلبه ولو ليوم،
ربما وقتها كُتبت النجاة لهم جميعاً.

****

ترك علويته الآثمة كما اعتاد أن يسميها وغادر..
لماذا ذهب؟.. ولماذا رحل؟؟
لا يعلم!!..
وليست به حاجة لتفسير..
ليست به حاجة لتبرير!
أكترث أحدهم به من قبل؟!..
أبرر له أبيه سبب رحيله؟..
سبب حرمانه من امه واستبدالها بشيطان؟..
سبب الغدر.. والخيانة.. والقهر..
ليست به حاجة لتبرير..

لن يخضع لمحاكمة هو قاضيها وجلادها إن احتتم الأمر!
لن يرضخ لأنثى، بل لمجرد شهوة لأنثى.. فكلهن مثيل..
فريدة مثلها مثل أمه..
كلتاهما آثمتان!!
وغنوة مثلها مثل جوان..
نعم اسمها غنوة..
تعثر بها وقتما قرر البحث عن خادمة وعروس..
درجة سلم مهترئة يستكمل بها خطته...
خرساء دون مطالب، حتى مطلب الزواج لم تكن لتصر عليه..
ألم يقل أن كلهن سواء!!.
تزوجها قبل أن يحضر جوان للقصر بأشهر بسيطة..
تؤدي دورها بجدارة ومنفيه بقبو علوي وقت الحاجة.
أهناك ما هو أفضل!!

قادته قدماه للأخرى..
لشيطان عفوي يتسلل بجدارة نحو جنونه..
كانت قد بدلت ملابسها للتو..
اقتحم غرفتها كما قبل دون تنبيه ولسبب ما أراحها هذا، ألم تكره حميميته من قبل!
كانت ترتدي غلالة هادئة للنوم.. حريرية بلون بشرتها تتناثر خصلاتها النحاسية فوقها بتمرد مثير..
وليكتمل التناقض بكوب زجاجي من اللبن الدافئ!!.
رمق الكوب بدهشة قطعتها هي بنبرة هادئة:
- أحضرتها لي زهوة.. حنون تلك المرأة بشكل مغيظ.
ابتسم مؤيداً:
- نعم.. فهي لا تكف عن إحضار كوب الليمون لي مع القهوة صباحاً.. هي جينات أمومة مضطرين نحن لمواكبتها!
- هه..

ضحكتها بسخرية، هي لم تكن معتادة على هذا النوع من الاهتمام ومثلها هو أيضاً..

سخرت مستكملة:

- يبدو أن لدينا عامل مشترك!

كانت هادئة حتى لمحته يتحرر من ربطة عنقه!..

يخلع سترته ويضجع براحة فوق فراشها..

ارتشفت حليبها طمعاً في ثبات وتأملها هو كثيراً..

هي تلك الصغيرة التي كان يلمحها بطور مراهقته كل عطلة تستنفذ حقه الطبيعي في مِلك أبيه!

هو يغدو ويرحل كالغرباء وهي ملكة متوجة بقصره!.

القصر الذي غادره بقرمان دون أن يدرك لما! عاد لها من جديد، لتلك التي تؤرق خططه وخَطته..

ليتها مثلها.. ليتها فريدة!!..

هي حمقاء متعثرة بعلالتها وبين أناملها

مشروب دافئ!!..

يراها طفلة..

يستشعرها أنثى..

ويريدها شيطان!!..

همس أخيراً:

- لم نستكمل ما بدأناه بالحفل.

كانت غاضبة بضعف، أم ربما غاضبة من ضعف!!.

رفعت رأسها في شموخ:

- بل انتهى الأمر.

يالها من عنيدة حمقاء..

لا تكترث بكلمات ولا تجهد نفسها عناء التفكير، فقط تتفوه بحماقة ممتعة بما يدور بخلدها..

تصتنع المكر بفشل ذريع..

مبهج!

اقترب منها، أوقع مشروبها أرضاً.. احتوى أنفاسها بخبث، كرر:

- أواثقة؟

وازت غروره بثبات ساخر:

- الطعام أمامي لو أردته لتناولته بالحفل!

ضحك.. انهار بشدة مقهقهاً, رسم فوق جسدها قلباً وهو يهمس:

- تملكين ذاكرة سوداء, جواني!

ابتسمت منتصرة:

- من بعض ما عندكم مُعلمي.

فرك صدغيه منهزماً برضا:

- إذاً لا يحق لي النوم بفراشي؟!

تركته متوجهه نحو فراشها, جذبت الغطاء وأغلقت نور المصباح ثم أردفت بنبرة هادئة:

- بالطبع.. ولكن فراشك بالغرفة المجاورة, أنت من أخبرني ذلك.

للحظة كادت أن ترتعد ويقفز قلبها منتفضاً من اقترابه المفاجئ بظلمة من صنعها, وشوش أذنيها قبل رحيل:

- لا تصدقي كل ما أخبرك إياه, فأنا بأغلب الأوقات كاذب!

تركها وغاب وحيداً مع ذكرى طفل ضاحك رغم قسوة الأيام..

وبصباح عاصف طال كل من بالقصر وجد نفسه بين لحظة وشبيهتها بطائرة ومن بعدها بمبنى آخر لا يعرفه..

الاستيقاظ بموعد, والنوم بموعد, والمرح بموعد, حتى الابتسامة بموعد!.

آخر ما يتذكره قبل أن يُنفى كخطيئة بمدرسة داخلية صارمة هو ملامح أبيه المفتخر بقراره! قسوة من أجل تأديب واصلاح..

وقتها لم يفهم مغزى العجوز وأمر صناعة الرجل الذي ردده..

عاش لسنوات يؤمن أنه الأدنى, بل أنه فكر جدياً بالهرب في أحد العطلات, وبعطلة أخرى قرر البحث عن عمل إضافي عله يتخلص من سطوة الحاجة.

أنهى دراسته بتفوق وغاب بدوامة أين سيعمل وكأنه ليس وريث إمبراطورية مختار!!

تبدل كل شيء بدعوة لمكتب الذئب العجوز وتهنئة حارة بالرجل الذي أنجب!

وفي غضون أشهر أصبح الشوكة القاسية بإحدى شركات الوالد، ولم يمر عامان على تسلم مقاليد الأمور وأصبح الرجل الآمر من وراء البحار. عاد لها ولملامحها ولفريدة الصغرى التي شبت سريعاً كجال النساء. عاد لمشروب بارد بليلة مظلمة ورجل تلمس طريقه نحوه رغبةً في سد دين وطمعاً في ثرثرة قد تجدي..

كان قد سمع عن ماجد رستم وتسكعه بيارات أوروبا تارة بمدينة الضوء وتارة بوطن الضباب، يرمقه متأففاً فهو قطعه من هؤلاء من المتشدقين بعظمة لا يستحقونها وسمو هم أبعد ما يكون عنه.

تحاشاه وأمطره بنظرة استعلاء، ولكن همهمة غيرت كل شيء، مساومة صريحة وسر قاسي يستحق الإنصات وفي غضون ساعة تمت صفقة..

سدد جميع ديون العابث.. ولم يفز بالسر فقط، بل أيضاً بالدليل القاطع الذي يثبته..

مر الشريط مجدداً بعقله وأيقن السبب الحقيقي لإبعاده عن القصر حينها، ليس هو فقط بل تبديل جميع الخدم والإختفاء لعدة أشهر لكلتا الأختين لتلد واحدة وتسجل النسب أخرى..

لتولد زهرة من بين جدران آثمة وتتهادى بين قصره كصاحبة حق..

كان السبيل إما المصارحة، وإما الثأر..

ولا يتفق ثأر مع مصارحة..

ولا تقضي مصارحة لثأر..

خطط ودبر كل شيء..

وتزوج الجميلة..

الكنز..

الزهرة البرية التي نبتت دون تخطيط، تزوج بسر فريدة وخطيئتها وقريبا جداً... نهايتها.

هل تصدق مكر الأيام، اليوم حفل وغداً جنازة!
كان إخطار فريدة لها بالأمر جافاً للغاية، وكأنها تصارحها بواقع غريب..
غائب بفعل سفر أو موت ما الفرق!
تحجرت مقلتيها مطالبة بعبرات..
تود البكاء ولكن نهرها جاف كصحراء قاحلة، تيبست مستسلمة ربما هي مثل ربيبتها بلا قلب.
ارتدت ثوباً أسود اللون بعد شهر من زيجة لم يحضرها الراحل، ولم يكترث حتى بتوقيع رمزي فوق عقد زواجها..
تأبطت ذراع زوجها متلقية التعازي، ومراقبة لدموع خالتها على الفقيد!
دوامة لم تلحظ خلالها آخر.. عيون راقبتها من بعيد وكأنها تود استشعار حزنها على أبٍ مزيف.
نار تأججت داخله وهو يدرك أنها لن تكون موجودة بجنازته، ولن تتقبل فيه تعازي، ولن تكترث حتى لنعيه إن رأته..

هو ببساطة يسدد ثمن خطيئة.
مر الأمر واختفى هو كسراب كعادته.. لم يعلم أن عيون صقر تابعت وجوده..

****

عادت من الجنازة متأففة فهذا الأمر شغل من عقلها الكثير وتود بشدة التخلص من توابعه..
لوثت يديها كي ينتهي، لا كي تلمح متطفل يود الحفر بماضٍ دفنته بقلب حجري..
لحظة أيقنت فيها ببذرة تنمو وفضيحة مدوية على الأبواب، فهي لم ترَ مختار منذ عام ونصف ونسب الجنين له أضحوكة..
فشلت في التخلص منها ونمت البذرة، وأنقذها طمع عقيم بطفل..
زفرت وهي تقبض على بطنها بألم وتتذكر الثمن القاسي الذي سددته..
اللحظة التي تعثرت بها ولادتها.. والمرأة الحمقاء التي كادت أن تودي بحياتها هي وطفلتها..

المنزل المظلم، والبلدة المتطرفة، رغبة في كتمان الأمر، والمشفى الذي نقلوها إليه بعد ذلك تنزف بحالة موت..
وجاءت جوان ونجت هي وفقدت رحمها..
فقدت أي رغبة ذكية تلو ذلك بإنجاب الوريث لمختار،
بلحظة خسرت كل شيء وكرهت كل شيء..
كرهت نفسها.. ومختار.. وطارق.. وجوان..
وراضي الذي كانت قد توعدته واتهمته بمقصد خبيث بالإنجاب منها..
هددته بجدران معتقل لن ينجو منه تلك المرة،
أخبرته أنها ستتخلص من الجنين..
وكانت كاذبة وكان يعلم..
وصمت راضي،
ليس خوفاً من تهديدها..
وليس هروباً من مسؤولية..
صمت لأنه يدرك معنى الخطيئة..
صمت لأنه يعلم أن طفل الخطيئة سيدفع ثمنها بكل ساعة من عمره،
ولن يتركوه حتى يرتكب خطيئة بدوره..
صمت وقرر المراقبة من بعيد،
ولم تجرؤ على نفيه ولم يجرؤ على الحديث..
وظلت بينهما
جوان..
****
يمر صباح ككل صباح والقصر على حاله ولكن هي تختلف مع كل صباح..
استيقظت مبكرة مع خيوط الفجر.. دندنت بهمس متردد لحن قديم كانت تستمع إليه بمنزل أبيها.
طالما أخبروها أن تمتلك صوتاً رقيقاً وكأنهم كانوا يدركون هبتها فسموها غنوة.
وصمتت غنوة..
نسيت صوتها ورغبتها بالحياة بين جدران قصر ظنت أنه الخلاص،
نسيت نفسها.. قلبها..
حقها ببساطة في الحب..
ألا تستحق الغزل؟

الإطراء؟
الإهتمام؟
التوق؟!
ابتسمت متذكرة اللقاء، الشغف..
ابتسامته الساحرة قبل أن يرحل والحاجة للتلاق.
تمتمت لنفسها
"باقي يومان"..
تناولت فطيرة شهية على الإفطار وغابت بسطور رواية متناسية طارق وجوان وهمهمة زهوة الماكرة عن شهيتها المفتوحة..
أطلقت العنان لعقلها لتدبر،
كيف ستخرج دون علمه؟
اختارت موعد صباحي بوقت غيابه..
انتقت ملابسها بصعوبة، وصففت خصلاتها، وتلعثمت مترددة قبل أن تقذف حالها بسيارة أجرة.
بعد نصف ساعة بزحام العاصمة رأته..
يقف هناك يرتدي قميصاً رمادي اللون ويتحدث مع عجوز يجاوره، يشير هنا وهناك، وينفعل، ويضحك، وينصت باهتمام..
وفجأة توقف كل شيء.. لمحها وتسمر لدقائق مقتحمها مدركاً سر تأثيره عليها..
ترددت مبتعدة، ولكن لا سبيل..
احتوى ذراعها وجذبها برقة مبتعداً عن الزحام، بدأ حواره بثقة:
- صباح الخير..
تجولت ببصرها مبتعدة عنه في خجل..
ابتسم وسألها:
- تأخرتِ؟
رمقت الطريق وأشارت للزحام..
على الفور همس بمكر:
- قاتل!!..
قبل أن تفكر جذبها لسيارة أجرة وهو يردد:
- هيا سنتأخر..
قلقت لوهلة..
أشارت سائلة إلى أين، لم يجب فقط أمر السائق بوجهته:
- خان الخليلي.

كانت زيارتها الأولى لهذا المكان الذي ربما لم تعرفه سوى من شاشات التلفاز.

كان يمسك بيدها وهو يتجول بأروقة الخان ويقص عليها تاريخه.. ذكر الكثير ولم تكن تعلم أي منه..

حدثها عن المماليك.. وعن من بناه.. عن تجاره.. وعن سكانه.. وعن محفوظ وروايته على اسمه، بل ورواياته العديدة..

ابتهجت..

يعشق مثلها الروايات!

دخل لمتجر صغير وحيا البائع..

لم تنتبه لما يقال ولكن عاد البائع بقلادة، كانت من الفضة..

تبدو عتيقة ورائعة وتميمتها حجر فيروزي اللون..

هدية!

تلك هي المرة الأولى التي يبتاع لها أحدهم هدية..

ابتسمت شاردة..

لم تكن تحتاج لتتمتم بشكر أو برفض..

ملامحها أقوى جواب..

حاوط رقبتها بقلادته وهمس بجانب أذنيها:

- تبدين فاتنة.

ردَت بهمس مماثل ليقرأ لغة شفتيها:

- شكراً

عبارة تُقال عندما لا نمتلك بذهننا شيء، وربما عندما نمتلك كل شيء!!..

أتشكره على اهتمامه؟!.. هديته؟!.. توقه المنفرد لها وحدها؟!.

جلسا بمقهى مجاور..

طلب لها الشاي ولنفسه القهوة، واضجع على الوسادة القطنية خلف ظهره..

المكان مُريح وحميمي وخالي بعض الشيء فهي ساعة صباحية.. ارتشف قهوته بتلذذ ثم أخرجها من شرودها بصوت مرح:

- قهوة عم ريحان الأفضل.

نظرت نحوه مستفهمة فتابع:

- عم ريحان أفضل من يصنع القهوة

بالخان.. هذا مكاني المفضل.
حدثها عن الجميع، عن عم ريحان وقهوته التي يأتي من أجلها صاحبي الذوق العالي.. وعن المطرب الأربعيني الذي رغم رداءة صوته يمتلك إحساساً فقدناه منذ رحلت "الست"،
"يقصد أم كلثوم"..
حدثها عن توافد السائحين.. وعن شره أصحاب المتاجر.. وعن المقاهي المجاورة.. وعن بائعي التجوال.. وعن رحلات الجامعات المقدسة للشاي الأخضر والسحلب ونفخ الشيشة.
ضحكت من تقليده للبعض، ابتسم واحتوى أناملها..
ودت الهروب ولكن دون جدوى، ردد:
- أنتِ جميلة للغاية.
تقافزت بقلبها دقات..
أغمضت عينيها لتمنع إما هروباً أو صوتاً كتمته داخلها لسنوات، وليتها تدرك ما ستقول..
تركت نفسها للحظة عاشق ولرجفة امتلكتها من لمسة يد وكأنها تختبر هذا الإحساس لأول مرة.
انتهى اللقاء وكانت سعيدة ومستعدة للقاء التالي..
ابتسامته سبقتها غمزتا وجنتيه لتضيف على جاذبيته وسامة، ردد:
- نلتقي بنفس المكان؟
وافقت ببهجة واضحة للعيان..
قبل الرحيل ناولها ورقة وهو يؤكد:
- اسمك؟
ضحكت داخلها بجنون..
لا يعرف اسمها ولا تعرف اسمه!!..
وكأنها حروف نبتدعها غير ذات أهمية..
أشارت للعود وضحكت..
بشقاوة جاوبها:
- تريدين لعبة تخمينات إذاً؟!
عيناها أجابته، وبدأ يخمن..
والإجابة
لا.. تلو لا..
تضحك ويفرد هو تلعثم حروف مبهج..



اصطنع الغضب وطلب جائزة إذا ما علم السر،
وفي النهاية توصل إليها:
- غنوة..
ابتسمت وتابع:
- اسم يشبهك، أنتِ بحق غنوة.
توردت وجنتاها، همس بمكر:
- أريد جائزتي.
لم تفهم، بدت تائهة.. خائفة..
وطلب هو قبلة!
تبدلت ملامحها وتمكن منها غضب، واحتوى هو كل شيء بكلمة أخرى:
- أنتِ جائزتي.. وقتك جائزتي.. ابتسامتك جائزتي، واطمع بحنينك جائزتي.
اطمأنت بل انشرحت وهمت برحيل مترددة، تابع عينيها وهو يدرك مغزى سؤالها:
- بلال

خاطرة

اهداء من

princess mennoz

منة القاضي

كلانا شيء واحد حبيبتي..
جئنا من رحم الخطيئة..
وتلاعبت بنا أنامل الطمع والشهوة..
جسد واحد بروح مشطورة..
أنتِ شقها الأبيض العفوية الرقة النقاء..
وأنا الأسود..
المنتقم الشرير العاشق!
المنبوذ والسيد!!
صراعات تفصلنا وتبعدني عنكِ حبيبتي..
فهل من ملتقى في المنطقة الرمادية؟!!
"طارق"

الفصل التاسع

وسلالٌ منَ الوردِ

ألمحُها بينَ إغماءةٍ وإفاقه

وعلى كلِّ باقةٍ

اسمُ حاملِها في بطاقة

***

تتحدثُ لي الزّهراتُ الجميلهْ

أنْ أعيُنَها اتّسعَتْ دهشةً

لحظةَ القَطفِ

لحظةَ القَصْفِ

لحظة إعدامها في الخميلةْ

تتحدثُ لي

أنها سَقَطتْ من على عرشِها في البسَاتين

ثم أفاقَتْ على عَرْضِها في زُجاج الدكاكين، أو بينَ أيدي المُنادين

حتى اشترَتْها اليدُ المتفضِّلةُ العابرةْ

تتحدثُ لي

كيفَ جاءتْ إليَّ

"وأحزانُها الملَكيةُ ترفع أعناقَها الخضرْ"

كي تتمنى ليَ العمرَ

وهي تجودُ بأنفاسِها الآخرةْ

***

كلُّ باقةْ

بينَ إغماءة وإفاقةْ

تتنفسُ مِثلِيَ - بالكادِ - ثانيةً.. ثانيةْ

وعلى صدرِها حملَتْ راضيةْ

اسمَ قاتِلِها في بطاقةْ!

أمل دنقل

أبتاعها لسعادته مثل ورود الدكاكين، تفقد بريقها وأنفاسها ليرضى هو بلحظة..

هل سيكون حينها راضي!

تنهد بعد مراقبة صباحية لوجهها، كانت تراقب الهواء من نافذة وتقبض على كوب ساخن وكأنه من يحفظ توازنها..

قبض يده وفأسه ونثر بذوره ليمنع نفسه من احتواءها بين ذراعيه، هذا الشعور القاتل الذي يفترسه كلما رآها ثم يتركه ذبيحاً بأشواك زهرة من صنع يده..

جوانة..

جوان..

أسطورة جونو..

وربيبة الأزهار..

ومعركته الأولى والأخيرة ضد حاله!

كانت هي على النقيض هادئة، منفصلة عن معارك وثورات تصرخ بداخلها..

تهرب نحو ذكرى وقلادة..

أبحرت بعيداً لطفولة عشر سنوات لغضب فريدة الغير مبرر على الدوام.. لانفعال ارتبط بقلادة، وكأن القلادة هي التعويذة القاتلة!!

ألم تصرح لها بذلك ألم تخبرها أنها لم تنل من ذكاءها سوى الفتات وتتشبث بعقل أختها المهترئ!!.

وكأنها غيرة من راحلة!

وكأن ثورتها على القلادة وقذفها بعيداً بلحظة جنون أمراً مرتب،

ليلتها أنهكها البكاء وتسللت للحديقة في يأس تبحث عن تميمة أمها الراحلة ولكن... لا شيء..

وكأنها تبخرت..

ومن وقتها تمردت على فريدة..

شاكست وعصت الأوامر وقادها القدر نحو راضي..

وقادها ثغرها لابتسامة مع ذكر اسمه، هذا الرجل الذي ظهر من عبق ورود ليحتوي طفولتها وطيش مراهقتها..

هذا الذي أعاد لها روحها الشاردة..

أعاد لها قلادتها أو كما أسماها
"الكنز"

كانت تقبض عليها بقوة وقتما دخل الغرفة, لا تبدو مختلفة عن أمس وربما قبل أمس..
لقد تحاشاها لأيام فرؤيتها أصبحت ضعف لا يستسيغه كلما اصطدم بارتجاف ملامحها ود أن يضرب بقوانينه عرض الحائط ويهرب بها إلى ما لا نهاية.
كان يسأل حاله كل ليلة لما تزوجته, ما دامت ليست بجشع فريدة وجبروت عقلها لما قبلت برجل لا تعرفه؟!!..
فقط من أجل حفنة أموال..
لم يكن يعلم أنها تعاقب نفسها بذات السؤال, القرار الذي اتخذته بلحظة شيطان..
شيطان تلبسها ليس لليلة بل ربما لسنوات ربيع تمكنت منها فريدة ونفخت في بوق غرورها بمكر..
العقد والحل والسبيل والجنون بجمل منتقاة

والرغبة الحمقاء في الهروب من سجن لسجن بديل!
هو له حضوره المميز, نثر أفكاره واقتحم فراغها بقبلة متأنية فوق جيدها.. اضطرابها كان جلياً كالقلادة البالية على صدرها..
إطار متواضع من الذهب الأحمر يحتوي صورة, بل اثنين متقابلين امرأة ورجل ليسا بأبواها!
تبدلت ملامحه على الفور وبدا الضيق نجم مسرح أفكاره..
هذا ما ينقصه الآن..
تشبث طفولي بذكرى أم.
كانت هي قد ابتعدت لخطوة واحدة فقط بلحظة قبل تجمده خلفها, همست بأريحية لم تلمح الإنتفاضة بوجهه:
- أود الإبتعاد قليلاً.
خُيل إليها أنه قد مر قرناً قبل أن يجيب وتصورت أن أعادت مارده لسلطانه وستواجه غضباً يريح كلاهما من هذا الإنجذاب العابث.
بدا صوته قريباً للغاية وهو يهمس بمراوغة:

- حسناً.. اختاري الوجهة وسنسافر سوياً.

قبل أن تستوعب وتفكر بردها على مزحته الغريبة تابع بضحكة مكتومة:

- ما رأيك بباريس أم تفضلين مدريد؟!

استدارت وبعقلها جواب واحد حتماً هو يحتاج لحلبة ثيران يفرغ فيها طاقة جنونه!!

وقبل أن تنطق طبع قبلة ماكرة وسريعة فوق شفتيها وهو يكمل:

- أم تفضلين أن نبتعد كلانا هنا بتلك الغرفة!!

أغمضت عينيها لتتمالك كابحة ضعفاً وغضباً بذات اللحظة.. تخلصت من تملك كان قد ابتدئه بالفعل وهي تبتعد ساخرة:

- ما نهاية تلك الخديعة، طارق؟

تأملها لوهلة مستمتعاً بالسجال ثم تابع:

- أنا لا أفكر سوى بنهاية واحدة

كان يشير بيده بإغواء نحو الفراش..

حركت رأسها بضحكة مستنكرة لتردف:

- ما الذي تغير زوجي العزيز؟.. تلك لم تكن الخطة

تصنع الصدمة بضحكة ثم ردد:

- تعتبرين زواجنا خطة؟!

واجهته بتحدي:

- وما هو إذاً؟

اقترب منها ليتمكن من ثباتها ولكن ظلت صامدة كالحجر.

عودتها لحلبة صراعه بأنوثتها الطائشة أمتعته..

همس فوق ملامحها:

- لعبة!

رفعت أحد حاجبيها باستهجان ثم ابتسمت بنجاح بطل ينوي احراز هدفه:

- أنا لا أجدها ممتعة..

لمعت عيناه ببريق تمكن من ثباتها وقبل أن تدرك او تفهم كان قد حملها فوق ذراعيه ليفزعها بنبرة خافتة:

- إذاً لنجعلها أكثر متعة!!

انتفاضة رعب تجولت داخلها، الكارثة ليست فيما ينتويه بل في إستساغتها له، ركلت

كطفلة وصرخت:

- ابتعد..

ولم يبتعد ولم يفعل أيضاً ما توقعته، ببساطة خطا وهو يحملها خارج الغرفة..

خارج القصر..

قذفها بسيارته وابتعد!

****

تبعثر خصلاتها يميناً ثم ترفعها يساراً ثم تجذبها دفعة واحدة في جديلة لتتمرد لاحقاً وتحل قيدها فتنفجر بجموح.

منذ الأمس والخدم لا يكفوون عن اللغو في مغامرة السيد، حمل زوجته كغنيمة وانطلق بها خارج القصر وعلى ما يبدو البلدة كلها..

تتنهد واحدة

"ليتني مكانها"

لتتابع الأخرى

"إنه اختطاف مشروع وما أجمله"

تجيب الأولى

"أحتاج للحب"

وتزهد هي تصنتها عند تلك الكلمة

"الحب"

تهمس لنفسها أمام المرآة باللفظ البعيد المنال

وتتذكر بلال..

وتضحك..

وتتصور بينهما حواراً، وهمس عاشق فوق أذنيها، ودلال منها، وتهور منه، وهروب وعودة، وكلمة أحبك..

ليسدل الستار بقبلة تماماً كما في الشاشة أمامها..

أليس كذلك يتم الأمر تقبل سندريلا أميرها ويعيشا بسعادة إلى الأبد!!.

ضاعت ابتسامتها وصدمتها حقيقة ولم يكن أمامها خيار سوى الهرب منها بدهاليز ظل اختارته لامرأة أخرى، بل فتاة ويافعة وجميلة وتستحق الحب

تستحق بلال..

عادت للمرآة ولحيرة خصلاتها ولموعدها القادم معه، سترتدي اللون الأزرق..

لا بل الأحمر..
أم ربما ترتدي تنورة مزركشة..
زمت شفتيها ستبدو غبية ونامت مترددة
واستقرت بالصباح على ثوب هادئ بلون كريمي
وتركت لخصلاتها الحرية واختبرت حسنها
بعينيه..
كان ينتظرها بنفس المكان، وتلك المرة لم
ترتبك ولم تسأل حتى نفسها إلى أين..
ببساطة تركت حالها له..
للحب
هي تستحق الحب..
كان هو كعادته وسيما.. بشوشاً.. صديق
الجميع، بداية من سائق التاكسي الذي أقلهما
حتى صاحب كشك صغير بزاوية ابتاع منه
مشروباً مرطب..
كانت تتشبث بذراعه كطفلة وزاد تشبثها
مع الزحام والظلام حتى أنها في البداية لم
تدرك متى وصلا لهذا المكان..
تصورت أنها السينما وسعادة مبطنة تملكتها

فربما ستشاهد معه فيلم رومانسي تعشقه،
ولكن انتبهت له وهو ينبهها ويحتوي
انكماشها خلفه:
- نحن بدار الأوبرا..
نظرت له مستفهمة وكأنها لا تدرك المعنى
فسألها مستغرباً:
- لا تعرفين الأوبرا؟!
لم يكن لديها جواب فالمصطلح مرتبط لديها
بألحان غريبة لم تستسيغها أذنها وغناء
غامض ومبهم بالنسبة إليها، ولكن هي لا ترى
أي من هؤلاء فالمكان يعج بشباب عادي للغاية
يشبهون بلال.. فتيات على وجههن حياة..
ورجال يحمل مظهرهم بساطة مريحة مثله.
قبل أن تجيبه بما تجهله أجلسها وقبض على
يديها مطمئناً:
- انتظريني هنا.
فوجئ بها تمسك بيده وترمق الجموع حولها
بقلق وكأن عيناها تصرخ لا تتركني، ابتسم
وهو يحرك ذقنها الصغير نحو المسرح ليضيف

بنبرة دافئة:

- انظري هناك.. فهناك عرض من أجلك.

وعندها اختفى وحزنت لابتعاده وظلت تحدق بخشبة العرض متحفزة بانتظاره فبطلها نجم على المسرح بعد قليل.

غابت الأضواء وانفردت بها بقعة واحدة، هناك حيث يدور البطل بفلك جمهوره.. ينهلون من انفعالاته ويجني هو ثمار جهده بملامحهم..

والمشهد لشاب عابث يقتات على هوس النساء، يُرديهم بابتسامة ويقذف وروداً حمراء.. صفراء.. بيضاء..

ألوان تشبه كلماته ونساءه ويخصهن..

وينال هو زبد الحياة ليلة تلو أخرى وتمر الساعات لحظات والليالي بمتعة متشابهة والمنوال واحد حتى تهب عاصفة..

والعواصف مردية.. قاتلة.. تبدل كل شيء بسطوة ليس لها سبيل، ينجرف يميناً وينحاز يساراً سيتجنبها حتماً أسيرضخ كازانوفا لإعصار حب!

ويهوى كازانوفا.. ويركع كازانوفا..

فالعواصف لا تمزح..

وخاصة عاصفة الحب.

****

المكان شبه ناءٍ، بحر ورمل ومبني من دور واحد ينفرد بهما.. ترجلت من السيارة وهي تسأل في حذر:

- أين نحن؟

لم يجبها ولم يحملها كتجربة الرحيل فهو يعلم أنها لن تملك الآن سوى اتباعه..

أدار القفل ودخل وهي خلفه ولم يكن المكان بالسيء..

غرفة معيشة مرتبة وإطلالة رائعة على اللون الأزرق، مطبخ من الطراز الأمريكي وغرفة نوم تطل بدورها أيضاً على البحر.

حرر المكان بالنسمات الباردة وفتح النوافذ لينطلق اليود بخبث متمكناً من عبق الأثاث.

تلمست الجدار وهي تعيد تساؤلها:
- ما هذا المكان؟
وجه بصره للمياة الزرقاء وكأنه يسبر أغوار الأمواج ثم تابع بنبرته المعاندة:
- هذا المكان هو خطئي!
لم تستوعب، كانت تمسك بخصلاتها المتراقصة بفعل الرياح وتنظر نحوه باستغراب وحينها تابع:
- كان ملكاً لأحد أصدقائي، منذ رأيته أصابني الجنون ولم أغادر إلا وهو ملكي تقريباً ابتعته بضعف ثمنه!
هربت منها ضحكة ساخرة ولم تمنع نبرتها الناقدة وهي تسأله:
- وعادة أنت هكذا؟ تسعى لامتلاك ما تريد بكل سبيل.
رمقها بنظرة جانبية وابتسامة مثلها، هو يعي مقصدها وسخريتها المبطنة..
وضع يديه في جيوب بنطاله وهو يتقدم من الشرفة متابعاً:
- عادة أنا لا أخطو دون حساب، أراجع قراراتي وأحصي المكسب وأقدر الخسارة ثم أمضي بطريق نعم أم لا، ولكن هنا اختلفت الحسابات وكما أخبرتك هو خطئي
جاورته وهي تتأمل البحر وتترك الرياح لتعبث بخصلاتها كيفما تشاء:
- خطأك أم أحد أخطائك؟!
ضحك وهمس ماكراً:
- هل نحن هنا لنتحدث عن أخطائي؟!
تركته وتوجهت للداخل، اقترب منها وقبل أن يفكر بجملة أخرى واجهته:
- وزواجنا أحد أخطائك؟
ظل ثابتاً لفترة دون تعابير واضحة قبل أن يردف بهدوء مشاكس: - أخبرتك من قبل هو لعبة.
بدا بعيناها بريقاً لم يعهده من قبل، وكأنها تحمل ألوان طيف مطعمة بنفحة تحدي..
بادرته:
- ولكن كل لعبة ولها قوانين

حرك رأسه في محاولة لإستنباط مقصدها وقبل أن يجيب قالاها سوياً
"هل تبدلت القوانين؟!"
ضحك بشدة وكتمت هي ابتسامتها وتقدم منها عاصفاً بالحديث والمنطق والسؤال..
مرر يده على القلادة وفتحها معلقاً على الصورة:
- جميلة
ابتعدت وجلة وواجهت البحر مرة أخرى، ماذا يريد؟ وأي صندوق ينبش بمحتواه..
جاورها هو تلك المرة، سألها:
- تذكرينها؟
تحفزت بمقلتيها عبرة وردت بصوت ضعيف:
- هي بعالمي كأحلام.. سراب يقتحمني من آن لآخر.
تأمل حزنها، هذا الحنين الموجع لأم هي الملجأ أمام كل ظلام..
زفر متابعاً:
- تصورت أن فريدة هي...

قاطعته بلمحة غاضبة:
- هي ماذا؟!.. لا يحل أحد بمكان أمي
رغم انفعالها بدا هادئاً، بل تابع استجوابه:
- ولكنها عوضتك؟
لا يدري أهو محق؟ أبملامحها إنكسار!
ابتعدت عنه وعن البحر وعن كل هواء.
توجهت للجدار وظلت تمرر أصبعها عليه بشكل عشوائي ثم همست دون أن تستدير نحوه:
- الأم تختلف تماماً.. هي من تبكي وتحتضنك بعد كل صراخ.. تحن لضعفك عندما تقر أمامها لا أستطيع.. وتحملك فوق كتفيها بالطوفان، لا تلقيك به لتعلمك السباحة!
قبل أن ينطق مرة أخرى استدارت وبدت الدمعة واقعاً خاصة عندما أتبعت:
- أكون جاحدة لو أنكرت فضلها عليّ، فهي فعلت أكثر مما هو مطلوب منها.. ولكنها ليست أمي..
كان يود الحديث.. المتابعة.. احتضانها

وانهاء الأمر، ولكن أوقفت كل شئ بإشارة أن كفى.

اقترب منها مملساً على رأسها بحنو لم تعهده منه، أزاحت يده متسائلة من جديد:

- هل تبدلت القوانين!

ابتسم بصدق وبدت ابتسامته ساحرة وهو يردد:

- ربما..

زفرت يائسة تود هروب:

- ولكن نتائج الخطأ عادة ما تكون كارثية

مرر أصبعه فوق وجنتها وهو يردف بمزاح:

- كوارث قومٍ عند قوم فوائد!

ضحكت وكأنها تنشد بهجة:

- لديك جواب لكل فكرة

أردف بغرور:

- أنا أدير إمبراطورية يتوه المرء بين دهاليزها.

تحدت غروره:

- وماذا عن دهاليز النساء؟

اقترب منها واثقاً:

- ليس لكِ بها شأن

تراجعت حتى لامست الحائط، ارتبكت ثم تماسكت محذرة:

- قد تكون مخطئ

كان قد فات الآوان واحتوى كل هروب لها بالفعل، همس بدفء أخير:

- أنا بالفعل مخطيء

وأغمضت عينيها وهي تلقي بآخر حجر دفاع لديها:

- لا

وسطر هو حروف النهاية:

- بلى

وانطلقت العاصفة.

****

كان المكان بين قدم وساق، حتى أنها تعثرت بفوضى إحدى الخادمات بالطابق السفلي وقبل أن تفكر بالسؤال جاوبتها زهوة:

- السيد قادم بعد الظهيرة.

كانت نظرة زهوة لها فاحصة وتحمل معاني عدة عن تسللها المتكرر فيما سبق.

حبست أنفاسها وكأنها بانتظار قيد، لحظات الحرية بالأيام الفائتة كانت بمثابة الجنة على الأرض.

عادت لغرفتها ولمرآتها ولحيرة خصلاتها وما لبثت أن ابتسمت وبدلت ملابسها وغادرت غير مبالية بشيء..

لديها موعد مع بلال ولن تخلفه..

لديها وقت مستقطع من حياة رجل يراها..

يقدمها لأصدقاءه دون خجل.. ويتناول معها طعامه.. ويجذب يديها لعبور الطريق..

يختطف منها ابتسامة.. ويهتم للحظات شرودها.. ويمطر أذنيها بالعبارة السحرية إذا ما غابت عنه..

"افتقدتك"

- افتقدتك

كانت بداية حديثه وودت أن تصرخ أنا أيضاً.. بتلك المرة كان هادئاً للغاية ووسيماً للغاية ومعشوقاً للغاية، لم تدرك أن لها أكثر من خمس دقائق سارحة بوجهه وكأنها تتأمل تفاصيله.. ترتوي منه لقرب الفراق..

مرر كف يده أمام عينيها الغائمتين وهو يسحبها لمرح تحتاجه:

- ما بكِ هل افتقدتِ شاي عم ريحان؟!

ضحكت وأغمضت عينيها تردداً لتهرب عبرة، تبدلت ملامحه لقلق وأعاد سؤاله بنبرة أكثر جدية:

- ما بكِ، غنوة؟

كانت على شفا لحظة من اعتراف، صراخ بكل شيء وأولهم كذبة خرسها، ولكن شجاعة الصدق آفة لا يتحمل وزرها الجميع.

ابتسمت بتردد قبل رحيل وتشبث هو بأناملها



تلك المرة:

- ابقي قليلاً..

حركت رأسها برفض معتذرة، تابع بفضول:

- هل تواجهين صعوبة بالخروج؟.. هل يسيؤون معاملتك هناك؟

كانت تنفي بانفعال بين، وكأنها لا تود الخوض بتلك النقطة..

لا تود الكذب.. ولا تود الصدق..

هي تفضل تلك المنطقة الرمادية حيث لا قيود ولا حدود ولا فواصل بين نقيضين.

هي فوضى ما بعد العاصفة..

الفصل العاشر

هي...
من تكون؟..
هي حواء بأمانيها وهو آدم.. ببديهية الحياة..
هي حواء باشتياق نحو جنون وهو آدم.. بثقافة النجاة..
هي حواء بقناعتها لثمرة ممنوعة..
وهو آدم..
يشتهي كل الثمرات!.

أمباح؟
اقتناص كل الفرص من الدنيا، أهو أمرٌ مباح؟..
هي وعبقها..
وماضيه وثأره وجنون الأوركيد..
سحب لفافة محترقة تلو أخرى.. تلو أخرى..
وتهادى الماضي متبختراً أمام عينيه بمكر شيطان..

يعلم جيداً متى يعدو كغبار الريح ومتى يقف متأنياً كقيظ آب..
مقولة اتخذها حكمة من معلمه الإنجليزي..
"النساء جميعهن كالفاكهة.. إغواء المذاق الذي لم ينتصر عليه رجل، ولكن تبقى الزوجة هي ثمرة البندورة التي لا تستطيع الاستغناء عنها!"
رمقها ممدة بسلام بين خصلاتها وصوت البحر وشراشف بيضاء، تغمرها ابتسامة رضا وكأنها نالت الجنة بليلة واحدة..
زفر مفكراً أتكون هي زاده بالحياة من البندورة؟!!
****

عدنا وكان ويمضي زمان..
أتلك هي أقصى أمانيها؟..
وقت مستقطع من الحب!!.
لا تدرك سر الصمت الرهيب الذي استحوذ عليها بعد رحلة الهروب إلى الجنة تلك، وكأنها تخشى الحديث فتفسد الحلم كما مر

على كليهما أم ربما كما اختار هو المسمى من قبل..

"الهدنة"

أنستطيع ببساطة أنْ نوقف الزمن عند نقطة ما؟..

تلك اللحظة التي يجتمع بها كل مراد.

دونَ تفكير.. دونَ حسابات.. دونَ عتاب..

ودونَ أي حماقة، سوى حماقة الحب.

زفرت وتركت هواءها يهرب مختلطاً بالرياح علّه ينجو من تلك المصيدة التي أوقعت فيها نفسها حتى دونَ خديعتها الخاصة من الجبن.

كانت السيارة تأكل الطريق بكل ما تحمله المعنى من كلمة، وكأنه لا يحمل صبراً لرجوع..

أهو ندم أم مجرد اكتفاء!

بعد شرود وابتسامة وغرق ببحر أمنيات غضبت وتسارعت داخلها الأنفاس وتمكنت منها الحسرة وصرخ عقلها به واتخذت قراراً برحيل!

أضحت بدوامة من التناقضات تشتعل بجانبه، وهو لم يكن يفكر حينها سوى بشيء واحد فقط..

بأمر يعتبره من المسلمات.

الزيارة القادمة لفريدة..

****

- سيدتي..

بدا صوت الخادمة كهمسٍ قادم من وادٍ سحيق..

استدرات بترو سنوات حصدت تعاستها..

استدارت لحقيقة تصمد خلف ظهرها بُغية كسره..

استدارت لاختيار وقعته بصك زواج منذ أعوامٍ تبدو كدهرٍ بعمر نوح قبل وبعد الطوفان..

استدارت بكياسة وبثبات لم يرتجف منه وجه القهوة ولن يرتجف.

- سيدتي السيد مختار ينتظرك بغرفته.

حاجب أشقر مصقول بتأنٍ ارتفع..

مختار يطلبها!.. ينتظرها!!..

مر على زاوية شفتيها الرقيقتين عبث ساخر، مختار متسلق الأنساب الذي لم يكن يدرك من

الرجولة سوى ثقافة الحريم، يطلبها بغرفته
وكأنها صحوة شمشون الأخيرة!..
صرفت الخادمة بإصبع غير مكترث، ولكن
الفضول حال دون إتمامها قهوتها وكأن ما
ينقصها صحوة عجوز..
خاصة الآن مع اختفاء راضي الغريب وعُري
طاولتها الصباحية من أزهاره.
أغمضت عينيها متنفسة ببطء ممررة أصابعها
بتأنٍ فوق عنقها المتصلب علها تنتصر على هذا
الانزعاج الذي أصبح يلاحقها بمكر في الآونة
الأخيرة.
هاجس ما يتسلل إليها بظلام الليل يقتحم
فراشها ويستأثر بوسادتها ليُقحم وساوسه
بأذنيها حتى خيوط الصباح..
"ربما كنتِ مخطئة بشأن تلك الزيجة"
****

كانت أمامه تضحك وكأنها تحيا بهجة
اللحظات الأخيرة..
الشفتان تكذب.. والرأس يدبر.. والوجه

يتلون.. والصوت يخدع، ولكن العينين..
هما بؤرة الصدق والخطيئة..
الهاوية والنجاة..
العشق والكراهية..
وقبل كل هذا..
الهواجس.
بحر ثائر من التساؤلات..
لما هي؟..
وليست عيناها فقط من تسائل، فبالبارحة
أيقظه زميل من غفوة نوم وحب.. من تكون وما
اسمها؟
خادمة!..
أنت تهذي..
جنونك تعدى خشبة المسرح، بلال.
عد لرشدك وابحث عن فتاة تليق ولو من أجل
متعة!
ضحك وترك الهاتف وصديقه النصوح وحادث
مرآته بعد غوص تحت مياه.. حتى لكِ أيتها
المتعة ابتدعوا القوانين؟!!

من يليق ومن ببساطة سنوؤد أحلامه..
يصرخ آخر..
احلم.. ولكن وفق قدراتك.
أبالحلم قدرات؟!
حتى بأحلامنا سنعجز عن الطيران!
ما المباح إذاً بدنيا القيود خاصتكم؟..
ما السبيل لغنوة سوى حلم يوازي ريشها المقصوص؟..
وحتى إن فكرت للحظة بالتحليق فستهوى أرضاً بكسور غير قابلة للترميم..
وسنلوي ألسنتنا جميعاً بالمقولة الوحيدة التي تتقنها
"تستحق"
عاد لها ولابتسامتها ولعينيها الحائرتين وقبل أن تسأل ما لا تستطع البوح به أجاب بالصدق الوحيد الذي نخجل منه جميعاً
- لا أعلم.
****

أخبرته عجوز تتقن التنبؤات يوماً أنه سيمتلك حظ صياد، وكانت تعني أنه سيقتنص من الدنيا مالها وبهجتها..
وكانت محقة فيما يخص المال، وكانت مخطئة بشأن البهجة..
وكانت العجوز هي أمه.
يتذكر حاله صبياً بجلبابٍ مهلهل يعدو بالدار دون إدراك أن الحياة تحمل ما هو أقصى من خسارته بلعبة العسكر واللصوص، وكان يفضل أن يكون اللص وسألوه لما فأجاب ببساطة:
- لأنه الأذكي!
أراد أبوه أن يسميه "منعم" تيمناً بأخيه، ولكن أمه كانت صاحبة الكلمة العُليا واختارت "مختار"، وعندما سألوها لماذا..
لم تجب فقط ابتسمت. وأيقن الزوج أنه بصدد جنون من نبوءات زوجته.
كانت تهمس بأذنه كل مساء..
"أنت المختار.. وأنت من ستنتشلنا من هذا الشقاء".

وظل هاجسها دافعه ولعنته على مر السنوات..
وعندما أصبح الغول كما كانوا يطلقون عليه بشركاته كان يتندر بمقولتها أمام الأقربون ويفتخر..
"وراء كل رجل عظيم امرأة، وتلك المرأة هي أمي"
يبتسمون ويتحدثون عن تضحيات الأم وحكمتها ويضرب الطاولة بكأسه ويتابع:
"ووراء كل رجل تعيس امرأة، وتلك المرأة هي زوجتي"
وحينها يصمت الجميع.. وتضمحل صورتهم بعينيه وتظهر هي بابتسامة متغطرسة بوجوه الجميع.
صاحبة الحسب.. سليلة النسب..
الشقراء التي ابتاعها ولا يخجل من تذكير نفسه وإياها كلما تمردت عليه. كانت نصيحة من صديق متمرس بخبايا الصفقات..
لديه المال ويحتاج عائلة، الأمر بسيط.. وربما غابت أموالهم ولكن ما زالوا يمتلكون النفوذ.
تخمرت الفكرة برأسه، ثروته ونفوذها ويمتلك المحظور إن أراد.
إنها نزعة الرغبة بفطرتها، المرأة تريد الذهب والجواهر والجمال والحب والرجل ببساطة يريد كل شيء.
وكانت هي جميلة لحد الإغواء، متعة شقراء اللون تحمل كياسة الأميرات وعبق عصر لم يكن عقله ليدركه قبل ذلك، ولكنها لم تكن كافية..
ألم يرد كل شيء!
رمق جسده المحتجز داخل كرسي مدولب بحسرة لم تعد حتى ملامحه قادرة على ترجمتها، ورمق خيال الإبن المنشغل بمحادثة هاتفية تبدو منذ الأمد..
طارق..
كان خطأً منه ومن خادمة مراهقة حتى لم تكن ماهرة بالهروب.
وكان قراره بشأن ثلاثتهما الأفضل، وإن كانت الأميرة غير قادرة على إنجاب وريثه

فلتسدد ثمن ذلك وينال الابن نسب العائلة المتعجرفة.

أزاح يد الممرضة عنه بزمجرة علّه يجذب انتباهه..

علّه يطلب منه أن يتوقف عن لومه..

أن ينسى حماقة سنوات القسوة، ويدرك أنها هي من صنعته الرجل الذي يريد..

قرقعة حذاءها قطعت كل شيء..

الذكريات والأمنيات واهتمام طارق بالهاتف..

ما زالت شمسها تسطع كملكة، وما زال ثباتها قاتلاً..

وبدت هادئة بشكل احترافي رغم ظهور طارق المفاجئ:

ابتسمت وهي ترمق باقي الغرفة باحتقار بما فيها زوجها:

- عاد العريس!!

كان طارق ما زال جالساً على مقعده بأريحية ممتعة له، مغيظة لها بشكل كبير.. وكان ابن مختار سيتقن أصول الكياسة..

ابتسم طارق ببرود متعمد وهو يكمل:

- والعروس أيضاً.. لا تقلقي فأنا لم آكلها بعد.

خرجت منها ضحكة هازئة وهي تستقر فوق أريكة مواجهة ثم وازنت مزحته الركيكة بحروف منتقاة:

- حينها سأضطر آسفة لشق بطنك مثلما فعل الصياد بذئب ليلى.

مرر طارق يديه فوق معدته باستهزاء متابعاً:

- لم أكن أعلم أنكِ من محبي الحكايات، أمي.. فأنتِ لم تقصها عليّ يوماً

غابت ابتسامتها وبدت نبرتها حاقدة وهي تطيل النظر نحوه:

- ربما لأنني لست أمك.

مرر أنامله القوية بخصلات رأسه الداكنة وكأنه يصطنع الجدية، كان يستهزئ بها بكل حرف وكانت تعلم..

تابع قبل أن تفكر هي بمقولة جديدة:

- معكِ حق.. ولكن هذا لا يعني أنكِ

ستمانعين بالتوقيع!

جذب انتباهها لما هو مهم بل ربما أهم، اللعبة تبدأ الآن ويكشر طارق عن أنيابٍ أخفاها بمهارة أحمق يشدو بتعاسة زوجة انتصاره.

تشابكت أصابعها تحت ذقنها وهي تتفحصه بتحدي ثم أردفت دون أن يرمش لعينيها جفناً:

- أي توقيع؟

لم يتحدث ظل مبتسماً يراقبها لوهلة، ولم تتبدل ملامحها بدورها وكانتها لعبة كسر الثبات والخاسر من سيرتجف أولاً وحتماً لن تكون هي..

ولم تختلج ولو للحظة حتى عندما توجه لها بخيلاء ليهديها الورقة.

لابد أنه جن، عقد مبايعة للقصر!..

تستغني هي جدار أمانها الوحيد الذي حتى لم يكن ليرضي غرورها ومقابل لا شيء!!!..

ظلت تتفحص الورقة بملامح ثابتة رغم طوفان الغضب بداخلها وفي النهاية دلتها باستهزاء مرددة:

- يبدو أن ابنة أختي أفقدتك عقلك!

تأملها بانتصار بدا واضحاً بلمعة عينيه خاصة عندما أكمل جملتها:

- بشكل لا تتصوريه!

قبل أن تفكر بحماقة يستحقها طبع فوق رأسها قبلة قاسية أزعجتها خاصة مع فحيحه المتأني:

- احتفظي بها، زوجة أبي.. ربما تبدلين رأيك وتقررين مهاداتي بما أملك.

استقامت تلك المرة بغضب واضح أرضى غروره قبل أن يغادر:

- إذاً تريد كل شيء؟..

استدار بملامح جامدة تحفظها جيداً فهي اختبرتها مع أبيه من قبل، حرك شفتيه بسخرية قبل أن يمطرها بما هو بديهي برأيه:

- ولم لا؟.. فأنا أملك كل شيء!..

غادر..

وبقيت هي جامدة ربما كالعجوز على الكرسي المدولب يراقب من مقاعد المتفرجين ولا يملك

سوى ثغر ظل يردد باستهزاء:

- كل شيء..

****

وتسللت كبهجة أريج من شقاء حياة..

يبدأ ميلاد الزهرة ببذرة، وبعدها يحين دوره..

ينتقي التربة المناسبة لأزهاره، يهيئها ويعالج ضعفها فتستمد من إرادته القوة..

يقذف بجذورها الغذاء بحرفية عاشق ويترك لأوراقها العنان.

وبعد أنْ تتلألأ بفتنتها، يقطعها!

يُبيدها من أجل لحظات مسروقة من السعادة.

تمتم

"جِوانة"

قبل أنْ يرحل برضا..

افتقدها بالأيام الفائتة، بل افتقدها العمر كله وهو راضٍ بتلك المراقبة الصباحية عن كثب، فزهرته زلزلت الحديقة ومن قبلها قلبه..

ولم يكن هو وحده المترصد، كانت هناك أخرى تنظر نحوها كنجمة سقطت عرضاً من

من السماء فوق رأسها..

وكأنها صفعة قاسية تخبرها..

أنكِ لستِ البطلة..

أنتِ ارتضيتِ بالصفوف الخلفية تحت جنح ظلام..

أنتِ وسمتِ نفسكِ كجسد دون حياة..

وسيلة صامتة لكل مراد..

متعة!..

انتقام!..

حقد!..

وربما..

عِبرة!.

ورغم كلها هذا ابتسمت، فهي لن تبقى بقضبان كواليسه للأبد..

ستتمرد.. وستعصي.. وستنتزع حريتها منه إنْ اقتضى الأمر.

لن تركع لسطوته مجدداً ولو على أنقاضها.

لن تخون بلال!..

- أين قصتك؟

تحدثت النجمة..
لمحتها عن بعد شاردة دون ملاذها الورقي..
نعمة الخيال التي ربما حبانا به الله لنستمر..
بللت شفتيها باضطراب..
لما تشعر أنها شفافة؟.. عارية؟..
يعلم الجميع ما بداخلها دون اعتراف!..
أغمضت عينيها مستعيرة رباطة جأش،
وأشارت موضحة أنها أنهتها..
تأملتها جوان لوهلة لا بأس بها، تلك الفتاة
تبدو أجمل من ذي قبل..
لا.. لا.. بل تبدو نضرة كأزهار الربيع..
أتعثرت بفارس؟!..
حب!
أتبدو هي أيضاً كذلك؟..
ألم يخبرها مع شروق الشمس أن وجهها يحمل
نداوة أزهار الفانيلا..
ولم يطل بعد ذلك فمعه تختزل الأمور بقبلة!!
هوس شعراء العشق ليس من شيمه..
هو فقط يختار ماذا يقول، ومتى يفجر البركان

بعبارة واحدة.
بعثرت خصلاتها في لوم..
جرم التفكير به أصبح مكرر..
أم ربما جرم الخضوع الذي حتماً لن تغفره
فريدة!.
هربت من ظلاله باستفسار للهائمة دوماً بين
سطور:
- وكانت سعيدة؟
صمتت غنوة دون جواب بل سرحت وكأن
السؤال اختطفها لمنطقة محظورة.
كررت جوان:
- كانت سعيدة؟
النهاية هل هي حقاً سعيدة؟.. هل هي عادلة
للجميع!
سحقاً..
تكذب الروايات وتتبدل تبع مزاجية الكاتب.
تفوز البطلة بقبلة تارة، وبهروب تارة أخرى،
ويتزوج العاشق بمحبوبته، أو يعذب نصف ما
تطاله يده من النساء فقط ليسدد سقطة

أخرى.
وغنوة..
أنا غنوة من أكون بعالمهما؟
الأخرى؟..
ابتسمت بغرابة أتبعها جنون.. همست:
- بالطبع سعيدة فقد هربت البطلة مع حبيبها.
في البداية كانت جوان ستكمل الحوار دون إدراك لنطق الخرساء! ولكنها استدارت فجأة وبصدمة تمتمت:
- أنتِ...!!
أيقنت غنوة جنونها..
سحقاً فالعشق حماقة تنعكس بخبث على أفعالنا.
تجمدت مكانها لدقائق أم ربما دهراً..
من يحصي!
وبعدها همت بهروب..
هروب من سقطة لا تدرك لما حدثت وكيف وأمام جوان!..

هروب حتى من مواجهة حقيقة لقاءها القادم به..
جوان دون وعي تنقذها كل ليلة من هذا اللقاء التي أقسمت ألا يتم ولكن لا تعرف كيف..
- ما اسمك؟
أوقفتها جوان والسؤال كان بهيئة أمر واجب التنفيذ.
أجابت بديناميكية جافة:
- غنوة.
- ولما تزعمين الخرس غنوة؟
- طوق نجاة.
- ماذا؟
- حينها بدا طوق نجاة.
- والآن؟
- قيد..
- ولم لا تخلعيه إذاً؟
أغمضت عينيها, هي تتمنى ليس فقط خلعه بل بعثرته وكانه لم يكن وخاصة معه..

ولكن ما السبيل؟..
فآفة خرسها كانت أحد الأحجار التي زلزلت بحره وكأن الصمت هو الفتنة والشقاء بذات الوقت، والأسوأ دون غفران هو الكذب..
تمتمت بتوسل قبل أن تغادر:
- أرجوكِ.. لا تخبري السيد.
لم تجبها جوان بوعد، فقط أمطرت فوق أذنيها أهم سؤال:
- لما أطلق عليكِ جوان؟
ارتجفت الخادمة وكان الأمر واضح، أسيكون الحديث بشأنه الآن؟.. أستواجه طوفان زوجة غاضبة وكأنها دخيل؟..
زائرة ليل تتخفى بخجل تحت ستار إثم لقاءه..
صمتت..
وكررت جوان سؤالها بنبرة أكثر حدة بل نبرة متوعدة ولم يكن أمامها سبيلاً سواه..
ملك اللحظات الحالكة وشيطان الهروب الماكر وخطيئة كل يوم..
الكذب.

النبرة ارتدت ثوب ثبات والنفس أخذته بعمق والكلام كان منمقاً بطاعة خادمة:
- السيد طارق لم يناديني يوماً جوان، ولا أعلم لما أخبر الخدم بهذا الاسم.
ألقت كذبتها وهربت ربما قبل أن تنفضح أما جوان فغابت عنها بهجة الأزهار وحماقة العشق.
سقطت بمنحدر قاس بوادي الهواجس أولها الخرس المزيف وآخرها ثرثرة ظلام تعثرت بها من قبل..
عن خيانة السيد
****

وكأنه ختام لحماقة عشق..
لما عليها الانتظار حتى يأذن ولو باهتمام؟!!..
تقبع بغرفتها بين ظلام بانتظار طلة قد تكون أو لا تكون..
تمهد لرد الفعل قبل الفعل وترتجف لمجرد التفكير بالمواجهة.
ألا يدركون أن الأسوأ من الموت انتظاره؟!..

شحذت طاقة من عينيه، بطل روايتها الذي
ظهر من صمت البانتومايم.
تلك الابتسامة التي يهديها لها فوق جناحيّ
غمزتين قلبا عالمها رأساً على عقب..
من كلمات علمتها أنّ الحياة أنثى..
والبهجة أنثى..
والوردة أنثى..
والرواية أنثى..
والموسيقى أنثى..
والغنوة...
أنثى!.
وبدأت وخطت نحو غرفته في سابقة مخيفة..
كانت تعلم أنه الليلة سيكون وحده دون
جوان..
اعتبرتها فرصة تنتظرها من أيام ولن تضيعها
أبداً..
الفرصة أنثى..
البداية أنثى..
والنهاية أنثى!...

كانَ هو هادئاً بفراشه..
تبدلت جوانَ بالأيام الأخيرة..
أهي غطرسة امرأة نالت بين ذراعيه الكمال؟..
لا.. هي ليست كذلك..
هي تختلف...
وهو يوقن هذا، ولكنها ما زالت تحيا ببوتقة
فريدة.. وهي يعلم جيداً أنّ منبع السموم
يستعر منذ زيارته الأخيرة.
وكأنها كانت خطوته نحو رسم تفاصيل
النهاية..
وكأنه مل معها لعبة الخداع ..
وكأنه يريدها دونَ تنازلات!
طرقات الباب أجفلته، ولكن ما لبثت أنْ أرضت
غروره..
ابتسامة واثقة علت ثغره وأذنَ لها بدخول
دونَ أنْ يتزحزح من الفراش.. جذب لفافة تبغ
دونَ أنْ ينظر نحوها وهمس بنبرة راضية:
- أخبرتك أنكِ لن تحتملي غيابي!
لم تجب وتوقع ذلك واستدار متابهياً ولكن...

لم تكن هي!
تجمدت أوصاله عندما أبصر غنوة..
لا يدرك هل نسي بشأنها أم هي من الأصل خارج حساباته؟.
كل غليان غاضب بعقله كان يصرخ بلفظ واحد..
"كيف تجرؤ؟!"
تجرأت غنوة على اقتحام غرفته؟..
خلوته؟..
تجرأت على احتياجه؟..
أم ربما مطالبته بحق؟..
حقوق!!
انتفض من الفراش، وارتجفت هي مغمضة عينيها..
كان عاري الصدر لا يرتدي سوى سروالاً قطنياً..
حافي القدمين وخشن الملمس والصوت..
جذبها من ذراعها حتى آلمها..
وما يؤلم أكثر هو قربه المشروع والمرفوض.
هو اختلال الموازين وسقوطها ببئر ما أنفت

تهرب منه طوال حياتها
الخطيئة..
تسارعت أنفاسها وهربت الكلمات ومن قبلها شجاعة المواجهة الأولى وهي خرسها المزعوم..
كانت ترتعش..
كانت خائفة..
مرتعبة منه بإثم جانية خلف قضبان..
تبخرت حماقة العشق وشجاعته واختفى بلال خلف عبرات القهر التي استحوذت عليها..
كان يزعق والكلمات تصلها مبعثرة..
ماذا تفعلين هنا؟..
كيف تجرؤين على اقتحام غرفتي؟..
نعم.. ظهرت غنوة بوقت غير مناسب وتصور أنها تبحث عن حق لا تستحقه!
أتلك هي النهاية إذاً..
دمية هو بين احتياج غنوة ورفض جوان!
كانت قد تشبثت بثبات أخيراً وتوصلت لجملة..
سهم نافذ وسينتهي الأمر..

ستقولها..
أريد الطلاق..
الحروف ليست صعبة ستمتم حرفاً تلو الآخر..
أ.. ر.. ي.. د.
الأمر ليس بعسير..
المشكلة أنها قالتهم دون صوت..
لفظتهم بخرس اعتادته..
ولم يلتقط سوى..
أريد!
ابتذال رخيص يا غنوة..
أتخشين هروب السيد؟.
منبع الكنز لكِ ولأسرتك..
ألا تدركين أنكِ هنا لدور كنت أفكر جدياً في إلغاءه؟.
أفكار متراقصة فوق وجهها في الظلام..
وأنفاس مختلطة بالغرفة لثلاثة!!..
منذ سنوات أخبره معلمه أن عشق الرجل واحد من اثنان..
إما قيدك.. وإما طوعته..

همس باسمها سراً مع بقايا ابتسامة جوان..
ظلها يتراقص أمامه بالظلام.. تراقبه..
تترصد أخطاؤه..
تملي على حالها صك عتاب وربما انتقام..
أسف..
يبدو أن التاريخ لا يمل التكرار!
تلاقت عيناهما..
جذب غنوة.. قبلها على مرأى منها..
ونزع كل رجفة عما انتوى مع ظهرها العاري
وانتهى عندها المشهد بظلمة كقسوة الظلال.
تتراجع.. تسقط..
تهوى بوادٍ مقفر سماؤه صورة واحدة.
زوجها وأخرى وصفحة عري لوثتها شامة..
ظلمة أيقظتها من خديعة تتقنها جميع النساء على أنفسهن ألا وهي.. الحب.
من تكون؟من هي؟
هي حواء بأكذوبة السلام.. وهو آدم بقطرة القتال.

الفصل الحادي عشر

في العلاقات عادة، كذبة واحدة كفيلة بأن تبدأ الفيضان..
مجرد كذبة واحدة..
سطور..
حروف..
ثلاثة..
أربعة..
عشرة..
مائة..
وسيختلف من بعدها الأمر..
تتخذ الظنون للعقل دروباً وتهوي الثقة للأرض السابعة في خزي..
ننسج الحكايات وتتملكنا الهواجس..
الشكوك..
تقفز لرؤيانا مسميات غريبة..
وبدهاليز عقلنا يتولد آخرون غيرنا..
والأمر كله يبدأ بكذبة واحدة..

تبدو شاحبة.. متآكلة كثمرة معطوبة أنهكتها الحياة..
أي بشري لا يتعاطف مع تلك المليكة المتعثرة
ربما حتى خوفاً من الخطوات!!!
وماذا عنه هو صاحب الحجرات الأربع التي بتلك اللحظة لا تريد أن تتسع لسواها؟!..
حجرات قلبه!!..
وكما عهد نفسه معها، أهداها أروع ابتسامة وجذب يدها حاملاً عنها الحقيبة مردداً اسمها بشغف بين تلك المرة..
"غنوة"
****

فقط قبل ساعات
النهاية
هي تلك اللحظات القاتمة التي تعقب ما قبل السقوط..
السقوط بحد ذاته ليس بالأمر الشاق، بل ربما قد يصبح ممتعاً!
إنها النهاية..

وهي ليست سيئة كما يبدو الأمر، بل أن أغلب النهايات هي مجرد شعلة للبداية..

والبداية هي تطور طبيعي للوصول نحو نهاية..

وكانتها متوالية لا تنتهي من العبث..

غاب الهواء وكأن حتى أنفاسها أصبحت رخاء لا تستحقه، الهاوية تقع خلف قدميها تماماً..

تتراجع.. وتتراجع ولكن لا تسقط..

ألا تسقط وينتهي الأمر؟!..

بدلاً من التهاوي وجدت نفسها ترتفع!!..

تصعد.. وتصعد.. وتهرب وتفر نحو هواء..

الدرج يبدو متعثراً وحده..

ولا تذكر كم مرة لامست ركبتيها الأرض في ضعف نبذته بغلّ أبى راحة العبرات.

كان صفير الرياح مختالاً بقوته يصرخ بأذنيها..

أنا الملك قد أحملك فوق السحاب..

وقد أدفعك بقسوة لتتمزقي فوق الأرض.

تمزق؟!

العبث لم يوازي بذهنها سوى لثوب امرأة أخرى مهلهلاً بين يديه..

العَبرة!

من جديد ستمكر لتتمكن منها..

ليعاودها هذا الشعور بالهوان.. الرفض..

النهاية!

ومن جديد هي بصدد نهاية يجب أن تكون من صنعها تلك المرة..

خطت حافية بجانب السور، بل فوق السور!..

لا..

لن تغامر بقتل حياة..

فالأمر لا يتستحق..

الزوج لا يستحق..

الحماقة لا تستحق..

هي فقط تود اختبار تلك اللحظات..

شغف ما قبل السقوط!!

****

ماذا عليها أن تفعل في مثل تلك الحالة؟..
تنسحب عارية؟!
لم تشعر بذل وهوان كما بتلك اللحظة..
الرجل يختلف عن المرأة, ببساطة قد يزيح مشاعره جانباً من أجل متعة.. ولكن حتى تلك المتعة الزائفة لم يحصل هو عليها.
غاضباً..
معاقباً..
يقتص منها ومن حاله كما اقتص من حبيبته منذ دقائق..
لم يبال باختفائها ولا بشيء سوى نافذته مراقباً الظلام..
القمر وخيال زوجته فوق سور قصره في خطوة بدت شبيهة بالانتحار..
زوجته!
لم يستشعر معنى الكلمة مثلما الآن وهو يأكل درجات السلم بهمجية أسد يخشى أن يزأر فيخيف أولاده..
ومن بعدها لا شيء..

صمت يصور اجتياحه لخصرها..
جسدها..
كيانها كله مقيد تحت وطأة خوفه..
خشية الرحيل!!
كانت جامدة كشمع لم يرتجف ولو لظهوره المفاجيء..
كانت متحجرة كمنحوتة هيرا..
أتراها تملك قسوتها!!
وكأنها قسوة نتاج لهجوم قبلة لا يستحقها..
وهو لم يفعل شيئاً سوى ذلك,
وكأنها داءه ودواءه وهوسه ولوثته ولذته!.
بصعوبة ارتجع..
ليس لشيء سوى لهشاشة الحجر البارد تحت لهيب هذيانه..
أخيراً قطع عذاب صمتهما سوياً بارتجافة واحدة:
- جواد!!
لا ترمش.. ولا ترتعد خلجاتها..
هي فقط تمثال جاحظ بظلام يبدد تصوراته..

فلم يكن هذا هو المنتظر..
بل هو ليس المتفق عليه!..
ثوري..
اغضبي..
افتعلي إهانة..
أو تحصني بدهاء وحللي ما أدخره من أجلك من ضرر..
زفر بضيق.. بدا غير متحكماً به..
جذبها وبعثر خصلاتها وجسدها وكأنه يقتل بنفس راضية الجمود..
ولكن لا شيء!..
بعد أكثر من نصف ساعة من صمت ظل يتأمل به وجهها علها تخطأ بطرفة عين..
استقام فجأة ليجذب جسدها بيد ويحملها بالأخرى، مراقباً توسدها الغريب لصدره مغمضة العينين وظلت هكذا حتى دثرها بالفراش مقبلاً لأول مرة جبهتها..
ناقض خطواته حتى وصل لزر الإضاءة فيغلقه ويرحل..

يرحل ولكن لجوارها محتضناً جسدها بقوة علها تئن أو تهلك وينتهي الأمر أو يصبح وكأنه لم يكن!
****

كنوز الكون لا تساوي ثمن انتعاشة صباحية..
تلك اللحظة الشفافة لعقل يستل رويداً رويداً من غياهب نوم..
بعيداً عن أضغاث ما قبل الغفوة وعن صرخات الضمير المثابرة دون استجابة.
هي ربما دقيقة أم ربما اثنان قبل أن يستوعب بالكامل مكانه..
الفراش.. وهي.. والحجرة.. وغنوة.. وليلة أمس..
لا شعورياً قبض على الشراشف الناعمة وأطل بعينيه يبحث عنها، ولكنها لم تكن بجانبه..
فرك جبهته غير مصدقاً لاستغراقه الغريب بالنوم رغم كل شيء!.. ولصداع الرأس المتآمر عليه بدوره، وكأن كل اقتراب منها له تفاصيله الخاصة من الجنون!!..

كانت ما زالت بالغرفة، مرتدية غلالة حريرية راقية بلون كريمي احتكرته دون رحمة.. وفوقها روب أنيق أسدلته بعفوية ممتعة من على كتفيها. تستند على الجدار في سلام غامض..

وترتشف قهوتها أمام النافذة..

استقام ليقترب منها مباغتاً وكأن في استحواذه ولو على البداية قوته.. الكتف العاري هو دعوة مبطنة لقبلة على صورته..

أليست تلك هي القوانين معشر النساء!

- بلى

همست فأجفلته..

أبغضبها تعويذة تصنت على أفكاره!..

أسند ذقنه الحاد على كتفها فآلمها، ولكنها لم تتحرك ولم تلتفت نحوه ولم تتسارع حتى أنفاسها ويغدر بها نبض القلب كالعادة..

راقب ضوء النهار بجوار عبقها ليهمس منتقماً من ثباتها بدوره:

- أترين.. المنظر من هنا جيد أيضاً، لا حاجة إليك بالصعود للسطح.

"ها قد بدأنا جولة"

الأفكار برأسها تؤدي رقصة النصر..

راهنت نفسها أنه سيكون البادئ..

سيجذب الخيط ليفجر القنبلة ويهلكهما سوياً..

فهو رجل..

والرجل يخشى اثنين..

غدر الزمان..

وصمت الأنثى..

أزاحت ذراعيه الملتفين حول خصرها، فصدقاً لم تعد أنفاسها تحتمل المزيد..

ابتسمت ووضعت قهوتها جانباً لتحيط رقبته بعناق قاسي..

آه..

رغم فرق القوة بينهما، ثم همست بجانب أذنه بصوت عميق:

- لا تكن واثقاً.. فأنت لم تختبر الأمر بعد!.

أرجفته الجملة ولمح بطرف عينيه على وجهها شبه ابتسامة!

أنزلت ذراعيها وتخطته فأوقفها بتملك أنامله الغليظة حول معصمها، همس بعينين قاسيتين للغاية:

- ولن اختبر.

ظلت صامتة تنظر نحوه دون أي انفعال..

جمود الحجر المسائي عاد ليطل من جديد ولكن تلك المرة على كليهما. أغمضت عينيها عندما شعرت أن قواها قاربت على الانهيار، فهمت برحيل ثانٍ لم يوقفه هو..

فقط ختم الأمر بجملة وخطوة أخرى لن يتخلى عنها:

- بعد غد.. عشاء مميز لثلاثتنا أنا وأنتِ وفريدة.. والحضور إجباري.

همست ساخرة دون أن تستدير:

- أمرك... مولاي!

****

القصر في الظهيرة كان صامتاً كالقبر..

هو رحل..

لم يحتمل المكوث..

فيه ضعفه وجبروته.. حنينه وسطوته.

وهي... الأخرى..

كما أتقنت دورها وتتقنه..

ظلت منكمشة على فراشها بدموع أغرقتها، والمؤلم أنها كانت تبكي دون صوت وكأنها احترفت الخرس بحرفية تلك المرة!

صرير الباب طغا على سكون ظلامها أخيراً وستأتي هي..

النجمة..

وتعلم ذلك فالمواجهة بدت حقيقة تتجنبها بالانتظار.

الغرفة سوداء.. تراها هكذا كخصلات الهزيلة على الفراش..

مرتعشة.. وباكية.. وضامة ركبتيها حتى جبهتها..

ولا يوجد وجه..

فقط خصلات منسدلة فوق جسدها وكأنها
منحوتة اغريقية تعبر عن حالها بجدارة..
مجرد جسد..
والمؤلم أنها كانت ما زالت لا ترتدي شيئاً!
الواقع عابث بقسوة يصفعنا بحقيقتنا التي
نتجنبها في أحلك اللحظات.. ودون وعي نخطو
نحن نحو مهانتنا بتباهي!
قبل أن تفكر بحركة تحدثت جوان..
أمرتها بنبرة جافة وخشنة!
نعم..
فالمرأة عندما تصل لتلك المرحلة من الحزن،
تفقد أنوثة صوتها فيخرج ثقيلاً.. حاداً..
متشبثاً بقسوة الرجال..
- قفي..
لم تجب غنوة ولم ترد التحرك..
هذا ما ينقصها الآن، إهانة من الزوجة..
هي لم تكن تشعر أنها الزوجة، فالزوجة لا
تتسلل لغرفة زوجها ليلاً.. الزوجة لا تلبي الأمر
دون نقاش..

والزوجة ليست مجرد فراش!
ابتعلت غصتها واستقامت قبل أن تكررها
جوان..
هاجمتها البداية ولا تملك سوى الاستمرار علها
تصل نحو الحافة وتتقن بدورها السقوط..
- استديري..
زفرت متألمة..
جوان تود إتمام الأمر بأغلظ الطرق غير مبالية
سوى بكرامتها التي بعثرها طارق فوق جسد
خادمة!
وقبل الأمر الثاني، كانت تعلم ما تود رؤيته
فأظهرته بسخاء..
النقطة السوداء بظهرها العاري..
ظل قاتم وسط خديعة الضياء..
السراب الأخير الذي كانت تمني به جوان
نفسها عله ليس بتلك الرعونة التي يبقي بها
غريمتها بجوارها تحت نفس السقف..
علها تكون مجرد عابرة سبيل!
ويجرح الآخر انتصار..

ألسنا جميعاً هكذا!
تمتمت غنوة بالقاسية:
- أنا زوجته..

أقاوم كل أسواري..
أقاوم واقعي المصنوع
من قش وفخار...
أقاوم كل أهل الكهف، والتنجيم، والزار..
تواكلهم..
تآكلهم..
تناسلهم كأبقار..
أمامي ألف سيافٍ وسيافٍ
وخلفي ألف جزار وجزار..
فيا ربي!
أليس هناك من عار سوى عاري؟
ويا ربي؟
أليس هناك من شغل
لهذا الشرق ..
غير حدود زناري؟؟...

أليس هناك من شغل
لهذا الشرق..
غير حدود زناري؟؟...
"نزار قباني"

لم تشغل بالها حينها باستدارة..
ألقت بتفجيرها وانتهى الأمر..
أيلقي الجلاد بالاً للضحايا!..
ومهلاً..
هي ليست بجلاد، هي الضحية المبتاعة هنا..
ستصرخ الزوجة..
وسيحتوي تمردها الزوج..
وربما ينتهي الأمر بطفل جميل يشبهها
ويأسره..
وتصبح هي وحكايتها ذكرى أليمة تطل
بوجهها القبيح عليهما بساعات العراك..
وتتقهقر بخزي مع أول إنتفاضة حب بينهما..
ألقت جسدها تحت شلال مياه وكأنها ظمأى
له..

تزيل عبء سنوات من فوق ظهرها..
قسوة افترستها صغيرة مع حمل أبويها الثقيل لمشقات العيش..
وبيع مشروع لأخواتها..
أنثى تلو أخرى..
وبجواره نظرات الخلاسية لجسدها، وكأنه انتهاك مخزي من أجل نخاسة مع تشبث بحبل واهٍ أتقنت بحرفية إحكامه حول رقبتها..
لا طارق..
لا جوان..
لا قيد..
لا مهانة..
لا زواج بصك مدفوع الثمن..
لا شيء..
فقط هو..
ولو كان مجرد شمعة ستحرقها وسط ظلام ستتشبث به..
بلال.

زوجته!
كلمة السر..
زوجته..
ما فائدتها كخليلة؟..
وما نفعها كخطيئة!
يجب أن تكون زوجة..
"غبية"
صرخت بقسوة غير مبالية ولو بسقوط الجدران فوق رأسها..
سيجبرها طارق على ما لم ترتضيه فريدة..
ستسدد هي الثمن الذي دفعه هو وأمه منذ سنوات..
وإن تجرأت وانتفضت كأنثى سيوصمها أمام الجميع..
زوجة ثانية..
الأولى لم تكن تتصور أنها ما زالت بالغرفة..
نعم..
فعنوة الأولى..
وجوان الثانية..

والحقيقة لا تتبدل ولن..

تماسكت غنوة رغم كل شيء..

وانطلقت تلملم أشياءها لرحيل متجاهلة النجمة كما تسميها وهي متوسطة غرفتها بذهول لم تفق منه بعد.

كانت قد ارتدت ملابسها وعقصت خصلاتها باستعجال ساحبة حقيبة وبعض ما ادخرته من نقود..

اعترضت طريقها جوان بعد ما استفاقت من صدمتها, وأمسكت ذراعها النحيل بقسوة متمتمة:

- أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟!

ارتعشت شفتيّ غنوة بسخرية قبل أن تكمل:

- لقد انتهت اللعبة سيدتي.

مرت على زاوية فم جوان ابتسامة هازئة.. بل ساخطة لكل ما يحيط بها حتى الهواء,

أردفت ببطء حاقد:

- أنا بدأتها لتوي!

استدارت نحوها غنوة غير مدركة لما تريده منها الآن فاحتدت مدافعة:

- أنا ليس لي شأن بهذا الصراع.. ولا تقلقي لن يسألك عني ولن يلحظ غيابي, سيدتي.. فأنا مجرد دمية أدت غرضها وانتهى الأمر.

ظلت جوان صامتة تتأملها..

فبشكل أو آخر ارتبطت بها رغماً عنها..

كلتاهما تحمل اسم نفس الرجل, وإذا ما نبتت البذور برحم وآخر فلديهما أشقاء!

لم تستطع كبح جماح غضب القلب مع ظهور الفكرة..

ومع قربها بهذا الشكل من أنثى أخرى, هي تشاركها الحق بزوجها حتى وإن أصبحت تكرهه!!.

حاولت غنوة التملص ولكن جوان لم تتركها, فلم تجد بداً سوى توسل آخر:

- أرجوكِ.. اتركيني أرحل قبل أن يعود.

لمعت عينا جوان ثم أكملت بشراسة:

- سأتركك.. ولكن بشرط.

تاهت غنوة وسط توهج النجمة أمامها وكأنها

تتبدل لأخرى، سألت بتردد:

- ماذا؟

- أود أن أعرف كل شيء.. فحتماً التقطتِ شيئاً من حرص رجل لن يبالي بكلماته أمام خرساء!

****

رحلت غنوة وعلى ما يبدو لن تعد..

وهي لم تكن تبالي بها أو بما ستفعله..

هي قررت أن تستغل منها ما تستطيع ربما مثله تماماً..

أغمضت عينيها في محاولة لاستعادة الحروف المرتبكة..

هو لا يتحدث سوى بالقليل.. ولكن مرة أو مرتان حادث رجلاً وكان غاضباً.. صارخاً, وكالعادة غير مبالي بوجودها بجواره..

وهي لم تهتم..

ولكن بعدما عرفت من الرجل حفرت داخل ذاكرتها الكلمات

وسألتها جوان:

- من الرجل؟

وأجابت ببريق واثق:

- أبوكِ.

ماجد رستم..

الأرستقراطي الهارب, والأموال التي دفعها طارق بغية تخليصه من أرق الدين..

ولكن طارق ليس بفريسة بدوره..

أصبح هو الدائن وحكم الحبل فوق رقبة الآخر وبالتالي ابنته.

أو هذا ما كانت تظنه..

كانت تظن أن طارق ابتاع ديون أبيها لإذلالها..

هذا كان قبل أن تمطرها غنوة بحقيقة أخرى غائبة..

هناك سر..

وطارق غضب لأن ماجد هذا كان على وشك افشاءه مرة أخرى..

وأتذكر أنه توعده وزبد ورعد..

"السر يملكه وحده"

وعصفت الأفكار برأسها..

أي سر يود طارق دفنه، وأبوها افشاؤه؟!

بأي عبث تهذي تلك "العنوة"؟!

وغنوة لم تقل شيئاً آخر..

لم تكن تمتلك سوى اسم المشفى الذي لفظه طارق بقمة هذره..

"مستشفى الرحمة العام ببنها"

****

- الجبن سيء.. لا أريد الجبن.

- ما رأيك إذاً ببعض البيض؟

- البيض سيء.

- حسناً.. سيغضب منكِ فيليب.

- لا.. أريد فيليب.

- سيحضر بعد أن تتناولي طعامك.

حشرته بفمها مضطرة وغاب هو..

ليحضر فيليب..

اسمها عبير..

وهي عبير عمره بسنوات عمرها التي توقفت بمهد الطفولة..

كان يضحك متذمراً بضعفه لنصفه الضاحك:

- قدرنا أنا وأنت يا فيليب أن ندلل أختي الكبرى!

فيليب نصفه الضاحك بالبانتومايم ظهر من أجلها..

كان قد غادر بالصباح كعادته ليبتاع وجبة إفطار لكليهما..

عمه كان واضحاً من البداية سأتكفل بك وحدك، ولكن هي فمكانها بدار رعاية..

فليس بزوجتي طاقة لعاقة بذهنها..

ابتسم برزانة رجل رغم أنه كان طفلاً في الثامنة من عمره اضطر أن يخطو بالحياة وحيداً بعد أن فقد والديه..

وكاد أن يتهاوى تحت عجلات الحياة أكثر من مرة..

ولكن ابتسامة من فراغ بدلت كل شيء..

رجل بعقده الثالث يضحك ويؤدي فقرته الخاصة بعشق وحرفية لا تدرك حتى السخرية من حوله..

وضحكت عبير حتى أدمعت، ومن وقتها قرر أن يحترف البانتومايم

يحترف الضحكة من أجلها، والحقيقة الصامتة من أجله هو..

والصامتة الأخرى أرسلت له رسالة نصية من هاتف مجهول بأحد المحال..

هرع إليها غير مدرك لما حدث، ولكنها كانت تستنجد به وكان يجب عليه أن يلبي النداء..

سحب حقيبتها وابتسم علها تهدأ، فهي حتماً بظرفٍ قاسٍ اضطرها لطلب العون بمكان تسكنه حتى تجد وظيفة أخرى تمتم مربتاً على كتفها:

- اهدئي.. غنوة..

أسبلت جفونها بتردد والسؤال يفضحها..

"أين سنذهب؟"

زفر بثقة قبل أن يتابع:

- ستبيتين الليلة بمنزلي، وغداً نفكر.

تراجعت خطوتين فجذب يدها متابعاً:

- لا أسكن وحدي، فأختي الكبرى تعيش معي.

ابتسمت باطمئنان وتركت نفسها له..

ورغم براءة ملامحها..

ورغم احتياج عينيها الصادق..

ورغم العوز القاسي بكل تفاصيله..

أطل هاجس الشيطان فوق رأسه..

"من أنتِ حقاً يا غنوة؟!"

****

خبايا الظلال

الفصل الثاني عشر

تكمن السعادة في التفاصيل..
تكرار يبدو للبعض بسيطاً للغاية، ولكن بالنسبة لها كان ببساطة...
النعيم!!..
إطلالة صباحية توازي ملامحه بهجة..
إصرار منها على تجهيز وجبة إفطاره..
وإصرار أقوى منه على مساعدتها..
يقف إلى جوارها بالمطبخ، يرتدي تيشيرت من القطن وسروال رياضي بسيط...
يُعد البيض فهو احترافي بالفطرة كما يقول، وتضحك هي وتجذب السكر لتحلية مذاق الشاي، ويستدير هو فجأة ليرتطم بها..
قريباً..
قريباً للغاية..
مهلكاً لها بعطره الصباحي..
وتود أن تنسى كل شيء وتغوص بين ذراعيه كزوجة..
كسيدة لهذا البيت.. وشريكة لعالمه بكل تفاصيله...
أجفلهما تذمر عبير..
كان هو بدوره ما زال يتأملها..
يدقق بتفاصيلها المضطربة..
نضارة وجهها العفوية كل صباح..
ارتجافة شفتيها وكأنها تود باستماتة قول شيء!
حبيبتي..
تلك الشفتين لم تخلقا لحديث، خلقتا لي وحدي..
بأنانية رجل ود أن يقبلها..
أن يسرق متعة ولو لدقائق، ولكنه استدرك حاله بابتسامة مطمئنة قبل أن يجيب عبير ويستبدل البيض المحروق بآخر..
وكانت هي في المقابل لا تشعر بقدميها..
تائهة..
حائرة..
راغبة بشدة بالقُبلة بدورها!!

ابتسمت عبير بطفولية ممتعة وهي تقذف
لقيمات البيض بفمها بنهم..
ضحك قبل أن يسترسل في ثقة:
- أخبرتك هي لا تفضل البيض سوى من يدي!
ظن أنها ستضحك بشدة كما اعتاد كلما
أمطرها بتلك الجملة، ولكن ضحكتها خرجت
مشوهة بعبرة...
ترك عبير المنشغلة بالطعام ليربت فوق
يديها معتذراً:
- غنوة.. آسف، بالمطبخ لم أقصد...
يا إلهي..
تود أن تقاطعه وتصرخ على الفور..
أيظن أنها غاضبة من رغبة عينيه بها؟!..
غاضبة من قربٍ أرادته بذورها؟!..
من تفاصيل عشق لم تختبرها يوماً؟!.
اعتذر ليرحل سريعاً وكأن في بُعده آمانها!..
لم يكن يعلم أن لمحة به تمنّيها بأبٍ مثله، وأخ
مثله، وزوج مثله، وابن مثله..
فبه تختصر رجال العالم..

أغمضت عينيها هامسة بعد أن ذهب:
"أحبك"
****

يرتدي بنطالاً رمادي اللون، وقميصاً بلون مماثل،
ولكن تتمايل فوق صفحته لمحة من لون الفضة،
فضة لامعة كعينيه بتلك اللحظة..
دخان سيجارته يتراقص فوق صورة امبراطورية
يُخضعها يوماً تلو آخر تحت قدميه..
من قبل ظن أن الحياة لا تدخر له سوى
المشقة، بينما نعيمه يهنأ به أغراب، ولكن الآن
يعود الحق لقبضته..
ويقترب بخطوات ثابتة من النهاية التي أراد..
تفصله أيام عن خاتمته التي خطط من أجلها
شهوراً..
سيسدل على مسرحه الستار ويبدأ عرض آخر..
ألم لهذا يدبر؟!
سيلقي بهم جميعاً خلفه..
ويبحث عن بطلة أخرى.. وأسرة أخرى..
وأبناء وعائلة وسعادة..

سيغلق صندوق الماضي القاسي حتى يستطيع أن يبدأ من جديد..

أن يكون مجرد رجل دون أضغان..

فقط يغلق الجرح كما يريد!

سحق سيجارته بقسوة في مرمدة بجانبه وهو يجاهد هروباً من صوته الأحمق..

قلب يريدها جوان!

كيف ومتى وبأي تفاصيل سيقحمها من جديد؟!!..

جوان مجرد امرأة من بين إناث..

أليس كلهن سواء؟!!.

أحمق!!..

ألم تلقنك الحياة دروسها بما فيه الكفاية؟!..

تضعف أنت الآخر من أجل شبه فريدة؟..

ولكنها ليست فريدة..

ضرب سطح الحائط بجواره معترفاً..

جوان ليست فريدة..

جوان هي زهرة رقيقة من الفانيلا، تتطاير أوراقها برقة من زفرة هواء.. فما بال أعتى الرياح معها!!.

أغمض عينيه متألماً.. يود من الهاجس الآخر هروباً، ولكن لا مجال.. فمعها لا مجال لشيء سواها.

لا شيء يوازي لذة تذوق الفانيلا وعبقها بذات الحين!...

أغلق نافذته متمتماً بغرور أراحه بنهاية الأمر:

- كل شيء.. وهذا أكثر قسوة بالنسبة إليكِ.. فريدة.

****

كانت شاردة أمام المرآة تنثر فوق وجهها لمسات تبرج أخيرة..

منذ ما حدث وهي تتجنب النظر نحوه.. الحديث إليه.. أوالتنويه عن ما حدث..

تخشى أن تنفجر فتخرج ردة فعلها ضعيفة.. منكسرة، فتُغذي غروره ومذلتها..

حتى الآن الصمت يبدو أفضل الحلول، خاصة أنها لا تعلم سر دعوة العشاء لعدوته اللدود وكأنها طواحن غضب لن تنتهي.

أغمضت عينيها متنهدة في محاولة لتفسير أفكارها..

بعثرة لغو غنوة قبل أنْ ترحل..

كل ما توصلت إليه أنّ أبيها يعرف أحد أسرار طارق الثمينة..

ومفتاح الإجابة اسم مشفى..

عصرت رأسها مراراً وتكراراً علها تجد تفسر أحجية اللغز..

ما علاقة أبيها بطارق؟..

وما دخل مشفى حكومي متواضع بالأمر؟!

قبل أنْ تغوص أكثر لمحت بعقلها ومضة من جنون..

المشفى..

طارق..

أمه..

طارق يبحث عن أمه الحقيقية!

وماجد يعرف..

ويبدو أنّ فريدة أيضاً تعرف..

ولكن لما تزوجها إذاً؟!..

فإنْ كانَ توصل للمشفى، فربما توصل للمرأة المجهولة بعالمه!

عادت تغمض عينيها بقسوة عل عقلها يُفرز أفكاراً أكثر دقة ولكن..

لا شيء..

لا سبيل سوى أنْ تذهب للمشفى بنفسها وترى ما توصل إليه طارق..

لا سبيل سوى أنْ تجد الأم، فتُحَل الأحجية وينتهي الأمر!

كانَ قد وصل لغرفتها في خضم انشغالها بأمره...

تغمض عينيها.. وتزم شفتيها.. وتتبدل ملامحها في تذمر طفولي تسلل إليها بخبث رغم الأنثى المشتعلة بجسدها..

هي وحدها دونَ كل النساء تتفرد بعفوية تنضح فتنة، شاءت أم أبت..

فبرغم بساطة الثوب بدا قاتلاً..

قررت أنْ توازيه أناقة بلونٍ رمادي، ولكن خاصتها يحمل رونق قماش الجورجيت المزين

بطبقة مطرزة من الدانتيل...
خصرها طوقته بحزام عريض من الساتان يمثل دعوة مبطنة لاحتواء ذراعيه، بل قبضة واحدة تكفي!!..
هي مختالة برشاقة قدها إذاً..
وهو لا يبالي، فغرور كهذا تستحقه عن جدارة!.
قبل أن تفتح عينيها مرر على جيدها قبلة أجفلتها..
تمتمت بحذر:
- متى دخلت؟
لم يجبها..
أحاط خصرها بحميمية متوسداً بذقنه الحاد على أحد كتفيها..
أصبحت تلك العادة هي تميمتهما سوياً..
رمق عينيها المحدقة نحوه في المرآة ثم همس بصوت أجش:
- أنا الآن نادماً على دعوة العشاء.. أريدك لي وحدي!

ابتسامة ساخرة مرت على زاوية شفتيها..
يتحدث مختالاً وكأن لا شيء حدث..
وكأنها ببساطة كغيرها، مملوكة لحقوقه وفقط...
لمح ابتسامتها بغيظ لأنه ببساطة ينتظر انفجاراً...
أي امرأة تبصر زوجها بأحضان أخرى ولا تغضب!!!.. تثور!!!
كان يعلم أنها تغلي من داخلها.. كان موقن للهشاشة المختبئة بقلبها..
رآها على حافة السور في وضع كان أشبه بأسوأ نهاية...
شدد من احتضانه لها وكأنها ستهرب!..
همس مرة أخرى:
- "شانت".. من اختارت الحب فهلكت ونبتت فانيلا.
رمقته بدهشة بعد أن دس أنفسه بين خصلاتها مستأثراً بالعبق لحاله، وكأنه غادر الزمان لأسطورة أميرة تركت المال والجاه

والسلطة واختارت الحب، لتتخضب الأرض بدمائها فترحل هي وتأتي الفانيلا.
سألته باهتمام استطاع جذبه بدهاء:
- تريدني "شانت"؟!
أدارها نحوه متأملاً عينيها بشغف ثم تابع:
- هل تعلمين أن الفانيلا من عبق الأوركيد؟
ضحكت هازئة في محاولة للتخلص من هالة الشغف التي يصر على جرها إليها:
- لم أكن أعلم أنك خبير بالورود!!
استقام وتبدلت ملامحه قبل أن يُكمل:
- ألهمني غراب أزهارا!
****

الملكات يرحلن بمجد..
كليوباترا.. تخضبت بزينتها ورحلت بشموخ..
ماري أنطوانيت.. تقدمت بشجاعة نحو مقصلة قاتليها..
وسليلة رومانوف.. غادرت بغموض يليق بها حتى الآن..
وهي..
هي تدرك أن النهاية اقتربت..
ربما ليست نهاية حياة، ولكن حتماً نهاية اللعبة مع الابن المزيف الذي ارتضت رباطه منذ سنوات..
أهدت أنفاسها الحارة للمرآة ورمقت نفسها في لوم مكرر كما الأيام الماضية..
للمرة الأولى يخونك عقلك يا فريدة فهذا المتمرد لم تكن أبداً لتروضه جوان..
"حسناً.. وإن كانت المواجهة الأخيرة.. وإن كنت سأخسر كما تدعي فسأخسر بنجاح!"
تلت عبارتها ابتسامة ثم توجهت لسيارتها نحوهما..
نحو سهرة مميزة كما دعاها ابن الخادمة..
وحتماً هو ينوي ذلك..
****

"الليلة مميزة بحق.. فأنا بين أجمل نساء الأرض"
ابتسامة واثقة مرت على ثغره وهو يسحب أنامل زوجته في تملك ليطبع قبلة.. تصيبها من جوان

والنظرة كانت لفريدة..
رمقته الأخيرة باستهزاء قبل أن ترتشف القليل من العصير خاصتها ثم أردفت بتحدي:
- حقاً!.. ألا يوجد تميز آخر تود اطرابنا به؟!.
ظل ينظر نحوها ملياً دون تعابير واضحة ثم انتصرت نشوة عينيه قبل لسانه ليجيب:
- حقاً.. لا تتذكرين المناسبة؟.. أمي!
يعلم أن اللفظ يغضبها، وتعلم هي مقصده منه..
ابتسمت ببرود قبل أن توجز بدورها:
- حقاً لا أتذكر.. بني!
استعراض قوى مثير للشفقة..
تلك الصورة التي تراهما عليها الآن..
فريدة برونق غامض لم تلمحها به منذ سنوات..
وهو يحمل فوق صفحة وجهه انتصار قادم!..
وكأنها لحظة انتظرها لدهر..
جذبت جوان كأسها بلامبالاة لتكمل متأففة:
- ليخبرنا أحدكما ما المناسبة وينتهي الأمر..

استدارت نحوها فريدة في قلق:
- جوان.. لا تبدين بخير؟
قاطعها طارق قبل أن تفكر جوان بجواب:
- نعم.. هي غاضبة على الدوام، ولا تطيق صبراً لشيء..
انتصب ليقترب من مقعدها ويمرر قبضته بتأني فوق بطنها مما أجفلها في لحظتها، ولكنه لم يتراجع بل تابع بابتسامة واثقة:
- ربما تحمل ولي العهد!
رفعت فريدة أحد حاجبيها استهجاناً لتسأل جوان بتحفز:
- حقاً؟
- لا..
كان رد جوان قاطعاً لا رجعة فيه وكأنها تقول لا ولن.
بشكل ما بدت فريدة أكثر راحة بردها هذا، ولاحظ طارق راحة ملامحها فأيقن أن الملكة ملت اللعبة وربما تود اخراج ابنتها من سجنه..
عاد لمقعده وهو يضيف بوقاحة مقصودة:

- نعوضها بجولة أخرى.. أنا مصر.

تجرعت جوان مشروبها بتوتر ملحوظ..

وودت أن تنتهي تلك المسرحية السخيفة الآن.. أيجوز!

أن ينتفض ممثل ثانوي بمسرح مهتاج وينهي العرض!!

البطل حقير.. والمخرج قاسٍ..

والنص مضجر.. والجميلة لا تريد الوحش..

ولا تهتم بتفاصيل عقدته.

أجفلها بخبر ثانٍ.. غريب.

- اليوم ميلادي..

تحدثت بعد شرود:

- ماذا؟!.. ولكن..

أكملت فريدة التي استوعبت مقصده:

- ميلاده الحقيقي عزيزتي، من التي أنجبته.

ما زالت فريدة مصرة على التحقير..

وهل يوازي كلماتها ذكر خادمة!.

ابتسم كابحاً غضبه، ثم تابع دون أن يحيد النظر عن غنيمة الليلة خاصته:

- عندما أفكر أجدنا بمصادفة غريبة للغاية، فجميعنا هنا قد سُجِّل بغير يوم ميلاده.

قبل أن تنطق جوان بنفي عن نفسها، تابع بإصرار دون أن ينظر نحوها بل ظل متملكاً بفريدة بقسوة:

- ملكتنا سجلوكِ ببداية الشهر.. ماذا أخبرتني يوماً؟.. الملكات لا يقبعن بالنهايات حتى وإن كانت أرقام بشهور!!.. وجوان حبيبتي.. ألا تعلمين أنتِ بدورك سجلوكِ بغير ميلادك الحقيقي؟

حركت جوان رأسها بنفي واثق مرددة:

- وما أدراك؟!.. أنا مسجلة بتاريخ ميلادي.. الخامس عشر من فبراير.

قاطعها بصوتٍ دافيء رغم كل شيء:

- برج الحوت!

ضحكت ساخرة:

- لا.. بل الدلو.

كانت تناقشه بعزيمة وكأنها ترفض أن تنضم لساحة عراكه مع فريدة حتى لو الأرض هي

تواريخ ميلاد..

جذب خصلة من شعرها برقة ثم تابع بنبرة هادئة جداً:

- يقولون عنها أنها امرأة تجمع بين التناقضات.. منزوية تخفي مشاعرها على الدوام.. نعم حبيبتي.. تحملين صفات البرج الهوائي، ولكنكِ غارقة في أعماق المائي دون أن تدركين!!..

همهمت دون فهم فتابع:

- الأخرى تلهث خلف مشاعرها.. تعشق ضبابية عالم من صنعها.. وتضرب بالمجد والمال عرض الحائط في سبيل حب حقيقي.. تقدس العاطفة والعطاء و...

تردد لوهلة قبل أن يتابع:

- تتقن ببراعة دور الضحية!

أغضبها.. تمكن منها ولم يكن يقصد..

هو لا يعلم سر حديثه عن مواصفات الأبراج الحمقاء..

أي رسالة يود ابلاغها بها وأي عبث يسعى إليه..

همهمت بشراسة منتقمة:

- الأبراج الحالمة لا تليق بك زوجي العزيز!

استدار للأخرى ورأى بركان ثائر يغلي بعينيها..

طارق يلعب بالألفاظ..

طارق يرمي بأوراقه واحدة تلو أخرى..

كانت تتصور أن طارق مسيطر على جوان.. تملكها..

ومعها يود كل شيء، بما فيه بؤس كلتاهما ولكن..

لا..

هناك شيء آخر..

هناك أمر خطير خلف كلماته..

رمقته بثبات رغم كل شيء، وكأنها تقول هات كل ما عندك!

تحاشى النظر نحو جوان ثم رسم فوق شفتيه ابتسامة قوية متابعاً:

- الليلة أود أن أقدم لكما ضيف غامض سيشاركنا العشاء.. عفواً أمي..

سأخرق القوانين، ولكنها هدية مميزة من أجل جوان..

خطواته أعلنت عن نفسها قبل أن يستدير طارق..

هو بحلته الباهتة اللون..

هو بتفاصيل وجهه التي تحفظها عن ظهر قلب..

هو بزرقة عينيه الصامتة..

هو بسكينته الصامدة رغم كل شيء..

هو...

راضي!

ريقها توقف بغية الإختناق..

ارتجفت ولم تعد تستمع لشيء..

حتى أنفاسها هربت منها..

توقف العالم بجحوظ عينين لم تعد ترى سوى انتصار ملامح طارق..

ملامح أخبرتها أنه يعرف كل شيء.

العيون.. رائعة...

تختزل أصعب الكلمات..

الحدقات تتسع محدقة بثبات وذهول، تضيق بمكر، ثم تتغلب بدهاء علها تنقض على الفريسة..

تنتفض بسطحها لمعة انتقام، ثم تخبو في مكر صياد..

كلاهما بدا بعالمٍ منفصل..

فساحة الحرب تلك ملكٌ لهما فقط.

الآخر غرق بدوره في مراقبة الأميرة المفقودة خاصته..

منذ أن وجه له طارق الدعوة، توجس ولكنه لم يملك للرفض سبيلاً، فهناك ببساطة معارك لا نستطيع أن نتجاهلها..

وهي كانت تائهة في أمواج مشقّة بصرية بين طارق وفريدة..

صراع يبدو لناظريه مخيفاً، وكأنه غول أطل بظله فوق رؤوس الجميع.

ابتسم طارق دون أن يحيد نظره عنها..

أليست غنيمته بتلك الليلة...

أردف مقدماً ضيفه:

- هو لا يحب ألقاب البستنة، يُعرّف نفسه على أنه عراب أزهار.. تفضل بالجلوس.

جلس راضي بابتسامة باهتة تذوقت لهيب نيران فريدة، أشار طارق بفخر للورود على المائدة:

- أول انتاج من جوان... حديقة صغيرة تحتوي فقط أربع انواع... هم اختيار راضي بالطبع، فأنا بليد بلغة العطور.

كانت نبرته ساخرة، ولكن تجاهلته جوان لترمق راضي براحة ضوء أطل على سهرتهم الكئيبة..

سألته بصوت بدا رقيقاً وافتقده هو للغاية:

- لما أربع أنواع؟

أجفلها راضي بجوابٍ أنيق:

- حروف أسمك!

المفاجآة ألجمتها لوهلة..

لفتة رومانسية لا تليق بطارق..

نعم لا تليق..

كان عقلها يردد مؤكداً بل هارباً..

تابع راضي متأملاً ملامحها:

- ج.. زهرة الجوري.. زهرة الأمل..

- و.. زهرة الوانكا.. زهرة الشفاء..

- أ.. زهرة الأوركيد.. عبق الملوك..

- ن.. زهرة النرجس..

قاطعته حينها:

- زهرة الغرور.

ابتسم بهدوء ثم أضاف بحنكة خبير:

- تتشبث بالأسطورة.. الفتى مغرور.. ونبتت الزهرة من ملامحه الجميلة بماء النهر.. ونحن كعادتنا تذكرنا الغرور وأهملنا الجمال!

تصفيق ساخر من طارق التي بدت بلحظة نشوته متحكمه به..

تابع بنبرة مبتهجة:

- تستحق لقب عراب أزهار.. حبيبتي جئتك بالأفضل!

نظرت نحوه في حيرة..

هو بهالة من الغموض والجنون بنفس الوقت..

ابتسم هو ببريق قبل أن يردف متابعاً فريدة

بعينيه:
- ما عشقك بقسوة عالم العراب!.. يعطونك طفل ولكنه لك وليس لك!.. أنت مجرد شخص على الهامش.. ظل فقط يظهر وقت الحاجة.
صمت راضي لوهلة قبل أن يجيب زوج ابنته الغاضب رغم كل ثبات:
- التفاني سمة لا يدركها الجميع.
تجرع طارق مشروبه بسخرية واضحة:
- حقيقة.. مبهور أنا بتفانيك، راضي!
كانت فريدة ثابتة كصنم..
منحوتة كتلك التي تقمصت جوان منذ ليلة فائتة، ولكن حتماً هي ستتشبث بقسوة هيرا!
أجفلهم طارق:
- أحببتها؟
المائدة ثابتة والأوراق تنتفض..
ثلاثة الآن مدركين لقواعد اللعبة..
والرابعة تقبع بظلال المجهول..
لم يهتز راضي بل أجاب بثبات:
- ولم أحب غيرها!..

ولم يكن يقصد فريدة..
كانت هي النابضة بعروقه حينها..
"جوان"
حقيقة يفطنها الجميع الآن وأولهم طارق..
عيون راضي لن تسمح بإيذاء ابنته..
استراح بمقعده لوهلة، وعاد مرة أخرى لمراقبة فريدة..
متعة انتصاره بملامحها حقاً تستحق!
لذة.. يود أن تستمر لما لا نهاية، ولكنه مضطر أن يقطعها..
رمق ورقة الفانيلا البريئة بجانبه لتتبدل ملامحه ويردف بنبرة مهتزة تصطنع الثبات:
- أرجو أن تكون هديتي قد نالت استحسانك..
كانت ملامحها تائهة..
في الصباح كل ما فكرت به كان هو وأمه المزعومة والمشفى وغنوة والثأر الذي لا ينتهي ولكن الآن..
تشعر أن ببحر غموض غير قادرة على

على استيعابه، وأولهم البستاني الذي يشاركهم المائدة..
تابع بعدها بما ينتويه:
- فريدة تحمل لنا هدية أيضاً.. أليس كذلك أمي؟!
تحركت ملامحها الجامدة أخيراً بشبه ابتسامة..
تدرك الآن خطته..
ابتزاز لعين..
وتوقن أنه سيفضحها بالنهاية..
استقامت..
فوقف الجميع احتراماً وعندها أردفت بعد صمت طويل:
- نرتب الأمر بحجرة المكتب، فهو بيت العقود في النهاية.
ابتسم..
وظنت جوان أن جميعهم في طريقٍ لغرفة أخرى مكملين رواية طارق.. فريدة التي لا تنتهي، ولكن الأخيرة أمرت والأمر واجب

التنفيذ:
- زهورك تنتظر ملكتها، راضي.. فلتريها هديتها الثمينة.
تبدلت ملامح جوان..
كانت تود بشدة ان تكون أذنٌ ثالثة خلفهما، ولكن راضي كان يريد أن يبتعد بها قدر الإمكان عن البركان وبأدب قال:
- تفضلي سيدتي..
ولم تجد بُداً سوى الرحيل فرغم كل شيء هي تشعر بالراحة مع الغراب..
وبعد أن ابتعدا وانغلق الباب على اثنان..
هاجمته بلفظ واحد دون غيره:
- القصر لك بشرط واحد.. طلقها.

خبايا الظلال

الفصل الثالث عشر

- القصر لك بشرط واحد... طلقها!

ابتسم..

خُيِّل إليه أنَّ ابتسامته تتسع للعالم..

فريدة تملي شروطاً!!.

تحرك نحوها خطوتان قبل أنْ تتلكأ يديه على جيبي بنطاله ويرمقها ببراءة مصطنعة ساخراً:

- أُطلق مَن؟

ضحكت متهكمة قبل أنْ ترفع أحد حاجبيها باستهزاء:

- جوانَ.. وهل لديك زوجة أخرى؟!

صمت كثيراً بملامح مبهمة قبل أنْ يتابع بابتسامة ثابتة:

- لا!

اضطجعت بخيلاء فوق أريكة وأشعلت لفافة أمطرت حريقها فوق وجهه مكملة:

- الطلاق.. الآنَ.

- هه!!

خرجت منه حارة.. باستهزاء غاضب..

سحب مقعداً خشبياً ليجلس فوقه معكوساً بلامبالاة ثم اقترب منها متهادياً بحروف قاسية:

- سادة الحرب قدامي اعتادوا وَهم جنودهم أنَّ هزيمتهم انتصار، وقود خبيث.. علهم يحظون بمعركة أخرى فوق أجسادهم!

رغم قوتها ارتجفت عضلة معانِدة جانب وجهها، أغمضَ عينيه ليتابع بهدوء واثق:

- توقعين عقد القصر وتختفي من حياة جوانَ.. إلى الأبد.

وجه الثبات غاب وحل جنون الأم، هذرت:

- هل جننت؟!

لم تتبدل ملامحه وهو يستكمل بإصرار:

- لديك بحسابك البنكي القليل، أنصحك أنْ تقتصدي من الآنَ فلا أود أنْ تهرع زوجتي خلفك بدور المسنين.

انتصبت بغضب نثر أشلاء مزهرية باهظة، رمق نقوده المتكسرة تحت قدميها باستهزاء أتبعه

صفير حاد متمتماً:

- سأخصمها من حصتك فريدة!

أنفاسها الهادرة كانت شعلة لما هو قادم، لم يشعر بحاله سوى وهو ينتفض مقيداً قبضتها التي أوهمتها بصفعة ستوسمها فوق وجهه..

أنزل ذراعها بغلظة آلمت كبريائها قبل أن يتابع:

- أمامك اثنتا عشر ساعة وبعدها ستعرف جوان كل شيء.

ظل الوضع على ما هو عليه قرابة دقيقتين، هو يقسو على أيمن ذراعيها وهي ترمقه مستوضحة ما بين سطوره..

همست بخشونة:

- وما الضمان؟

ضحك منتصراً:

- أي ضمان!

اشتعلت عيناها بسعير مغتاظ فتابع مختالاً:

- لا ضمانات.. تلك هي الصفقة وأنتِ حرة اقبلي أو ارفضي.. ففي كلا الحالتين أنا منتصر.

بتلك اللحظة ترك ذراعها المتصلب واستدار ليرحل، بعد خطوتين بل ثلاث.. لا أربع... كانت تحصي خطواته!

أردفت بتحدي أخير:

- لو علمت جوان ستخسرها.

على زاوية فمه تلكأت بسمة انتصاره، أجابها بثقة دون أن يستدير:

- لو علمت جوان أنتِ هي الخاسرة الوحيدة فريدة.

ألقى عبارته ورحل تاركاً هواءه الثلجي يحوم حولها..

زفرت بيأس لم يترك بعقلها سوى كلمة واحدة.

"الخسارة"

****

لا تعلم ما بها ولكنها شعرت بالراحة لانتهاء السهرة، حديث راضي عن الزهور لم يشرح صدرها كما اعتادت..

لم يفلح صندوق ذكرياتها المتجسد أمامها

في اخراجها من حيرتها، بل تنفست الصعداء حينما ظهر طارق ورحلت فريدة ومن بعدها راضي.

قبل أنْ تهرب لغرفتها جذبها من معصمها ليهمس بسطوة:

- تبدين جميلة الليلة.

لم تهرب ولم ترتجف رغم طوفانْ الاضطراب بداخلها، استدارت نحوه بثبات لتجيب:

- أعلم!

ورحلت لغرفتها..

ولم يجرؤ هو على اللحاق بها.. رغم شدة رغبته بها.. رغم الجنونْ المتهادي بصدره صارخاً بأنها امرأته، لم يستطع أنْ يقترب وكانْ يعلم أنها أبداً لن تسمح له.

وهي...

هي انفردت بوسادة وأشبح أفكار...

تفاصيل صغيرة أيقظت بعقلها جنونْ، ظهور راضي.. اضطراب فريدة وجنونْ الانتصار بعيونْ طارق..

آلمها رأسها، شعرت بأنها على أبوب هذيانْ إنْ لم تنبش خلف هذا السر الذي يجمع بين طارق وراضي و... فريدة!

وطرف رابع..

رجل وبقيت ذنوبه..

ما دور أبيها بهذا المربع القاتم؟

أي أضلع ملعونة رسموها سوياً؟..

عادت للسطح كلمات غنوة..

اسم المشفى..

طارق وإصراره على دفن سر يخصه وأبيها يعلمه!

همهمت:

- ربما هو مقر ولادته.. ربما يبحث عن أمه!

ولكن..

ماذا عن راضي؟!

لولا زهوة وحليبها الدافئ كانت ستجن بالفعل، ستعصف بها الأفكار نحو هاوية من الأرق..

ابتسمت مع أول رشفة، ليت لديها أم مثل

زهوة..

بسيطة بوجه مستدير وحجاب أنيق ولسان ذاكر بالله يدعو لها..

- يا الله!!.. أبسط وأهم حقوق الوليد من أمه..

همستها بنشيج مكتوم.

هي في أقصى احتياج لأم..

لابتسامة تمحي الهموم ونصيحة خالية من حسابات السطوة والثروة..

لمحة ساخرة مرت على وجهها قبل أن تجُبر عينيها على النوم وفي عقلها قرار واحد دون غيره..

زيارة مشفى الرحمة..

****

استيقظ مبكراً دون رغبة حقيقية للبقاء..

أصبحت رؤيتها مسالة مؤجلة حال ينهي الأمر مع فريدة!..

ينهي آخر سطور انتقامه ويتسلم جوائزه من جديد..

بيضاء..

نقية..

رغم ما لوثوها به..

ولكن هو قادر على استدراك الأمر..

الموضوع بسيط..

زيارة أخرى لمنزل خطاياه الصيفي!

آه لو تدرك فريدة بأنه ربما أكثر منها لا يودّ أن تختبر جوان مرارة الحقيقة..

ضحكة ساخرة مرت على شفتيه قبل أن يرمق ساعته ويدرك ببساطة أن مهلة فريدة انتهت وحان وقت إسدال الستار.

****

حتى لو بنهاية شموخ عليك أن تبقي على عاداتك..

روتينك..

البائس الذي يُلهم ألدّ أعدائك فيتقنون هزيمتهم مثلك!

استيقظت مبكراً بموعدها المعتاد بعد أن نالت قدرها الطبيعي من النوم، مائدة إفطارها معدّة بالحديقة..

عصير البرتقال والقهوة والخبز والزبد..
وورودها!
كان صامداً بموقعه رغم تيقنه أن حادثة الأمس قد تكون العشاء الأخير، ظله الذي يطفو حولها كل صباح لم يعد مقبولاً مثل ذي قبل ربما من كليهما..
ارتشفت قهوتها بهدوء ومرت بعينيها فوق أخبار الجريدة..
مناسبات اجتماعية متكررة وأحداث بعد اليوم قد لا تكون جزءاً منها..
لقد أجهدت عقلها بالأمس علها تصل لانتقام.. خطة.. كيد تدمر به كل ما دبّر ولكن..
لا شيء..
ببساطة الخطوط مرتكزة بيده نحو دمية تحمل وهن سنوات ادخرته علها تنتصر..
كانتا عيني راضي تحمل نفس المعاناة..
ملعون هو وهي..
ولكن ليس جوان..

لن تدفع جوان ثمن حماقتهما من قبل والآن..
زامور سيارته نبهها أنها قضت ساعات الصباح كلها بالحديقة..
سرقها الوقت والزمن وهو من قبلهما..
طوت صحيفتها وألقت له بابتسامة صفراء قبل أن تسبقه لمدخل القصر. نظر نحوها متعجرفاً وقبل أن يبدأ بادرته بغنيمته الموقّعة هامسة بصلابة:
- لو آذيتها سأقتلك.
ابتسم بسخرية وهو يمرر عينيه على العقد ليردف بدوره:
- أنا واثق من هذا.. أشك أنكِ فعلتيها من قبل!
غامت عيناها بكرهه..
نعم فعلتها من قبل، وليتها فعلتها مبكراً قبل أن يهذر ماجد بماضيها ومستقبل ابنتها..
وما الفرق!
هل وزر الخطيئة يختلف باختلاف زمنها؟!

وربما تقتل طارق..
بل تود!
فمن يزهق روح سيزهق اثنان وثلاثة، الصعوبة تكمن بالمرة الأولى.
قطع شيطان عقلها بتبجح متابعاً:
- سأخبر جوان أنكِ سافرتِ على عُجالة ولا أعلم تاريخ عودتك.. من يعلم ربما لا تعودي على الإطلاق!
ضاقت عيناها بغيظ لتمتم مستنفرة:
- لا تشعل غضبي أكثر.. فاحذر ثورة امرأة خسرت كل شيء.
وكأنه لم يسمعها، تابع وهو منشغل بهاتفه وكأنها نكرة أمامه:
- متى ستتركين القصر؟
تأوهت ساخرة:
- لا تطيق صبراً للرجوع.. هل ستبحث عن من أنجبتك سفاحاً لتقمحها مكاني عل الرقي يرتضي بها؟!
اهانتها له أثلجت صدرها..

ربما انتصر بلعبة حقيرة.. ابتزاز..
سجن ابنتها بقصره، ولكن لن يهنأ بمذلتها أبداً..
كانت عيناه قد استعرت من الغضب ليس من الإهانة بل من ناقوس الذكرى الذي ضربته، الأم التي ظل يبحث عنها لسنوات، وفي النهاية لم يجد سوى ذكرى لامرأة فارقت الحياة وأبناء يبدو أنهم أخوته، ولكن لا يشعر نحوهم بشيء حتى الملامح لا تحمل قاسماً مشتركاً..
اكتفى بمراقبتهم من بعيد ورحل بعد أن رمق اسمها فوق قبر مقنعاً حاله بأفضلية ما حدث فربما لو عرفها لكرهها أكثر!
أغمض عينيه بعد أن أطلق زفرة حارة ليتابع بقسوة:
- غداً ترحلين.. بعد غد لن يكون هناك فريدة، ابحثي لنفسك عن ظل تقتاتين من خلفه واثق أن الأمر لن يكون مجدها بالنسبة إليكِ.
وازن جملته بنظرة استحقار..

ألم تبع نفسها لوالده من قبل من أجل المال؟..
ستجد رجل آخر يرغب في تذوق ربما ما تبقى منها وسيقدر الثمن وهي سترضخ كما غيرها!
رحل وتهاوت على مقعدها..
بدت كمنحوتة قاربت على التشقق ولكنها تأبى الإنهيار، العبرات متحجرة ففي إنهمارها ضعف.
بعد وهلة استقامت وتوجهت إلى غرفتها لملمت باقي أشياءها ورحلت دون أن تلتفت وراءها، ولو حتى نحو راضي الذي رمقها بهلاك يستعر بقلبه ولم يتلقَ منها سوى عبارة واحدة..
- لم تنجب الأرض من يكسرها!

****

المكان يعج بضوضاء.. صنوف مختلفة من البشر..
حينما خطت لتدخله أيقنت أن هيئتها وكعب حذائها الشاهق لا يتفقا مع المحيط حولها، على الفور استقبلتها نظرات التعجب والإعجاب والغضب وبعضها حمل حقداً!

قادت قدماها نحو غرف الإدارة مبتعدة عن مشهد المرضى المحزن وطرقات المشفى العامرة بالشقاء والوهن ورائحة الداء.
ورغم هذا لم تكن الغرف الضيقة بمراوحها التي تطلق أزيزاً مرهقاً تختلف كثيراً عن ما هربت منه منذ قليل..
سخرت من نفسها ومن الملعقة الذهبية التي ذابت في فمها وهي تخطو نحو امرأة قاربت على الأربعين من العمر ترتدي نظارة طبية كبيرة الحجم وخماراً فاتح اللون طغى على نصف جسدها..
تنحنحت كي تنتبه لها المرأة تاركة حديثاً يبدو شيقاً جداً على الهاتف:
- صباح الخير
تبدلت ملامح المرأة لوهلة عندما لمحتها والأغرب أنها مرت بأطوار مختلفة، أولاً الأنبهار ثم تلاه الضيق لينتهي بنفور بين..
- صباح النور.. أي خدمة!
ترددت جوان لوهلة قبل أن تُكمل:

- الحقيقة أود البحث في أرشيف المواليد لديكم.

قهقهت المرأة بسخرية أتقنتها وهي تجيب:

- مواليد!!.. عزيزتي نحن هنا مشفى ولسنا بالسجل المدني، ومن أنتِ لتطلعي على أمرٍ كهذا؟!

تمكنت حمرة الغضب من جوان ومن تلك السمينة التي تتبجح بوجهها، أكملت كابحة غضبها:

- أنا أبحث عن مريضة بعينها، دخلت المشفى بعام... 1979 وربما 80 لا أتذكر

رفعَت المرأة صوتها مقلدة الشقراء المدللة:

- لا أتذكر.. حسناً يا حلوة عندما تتذكرين تعالي، وليس عندي هنا.. ابحثي عن أتربة الأرشيف.

ضيقت جوان عينيها في غيظ ملتهب من تلك الأنثى ثم رحلت دون أنْ تضيف كلمة، أوقف هدير أنفاسها صوت رجولي لزج لهث خلفها وكأنها غنيمة!:

- لا تغضبي نفسك يا آنسة.. مدام حكمت ضيقة الخلق بطبعها.

استدارت لتجد رجلاً يوازي تلك الـ"حكمت" سناً ولديه خصلات قصيرة بلونٍ برتقالي صارخ ونمش لا يتكرر كثيراً بالأوساط المصرية بسمرتها النيلية ولكنه موجود..

زفرت دون صبر:

- شكراً.

واستدارت لتُكمل رحيلها مبتعدة عن عبق تعرُّقه ولكنه عارضها من جديد:

- أستطيع مساعدتك..

انتبهت حينها له متغاضية عن لزوجته وعيناه التي قررت التهام ساقيها، أردفت بنبرة تصتنع السيطرة:

- كيف؟

ابتسامة أظهرت قواطعه المتداخلة كانت الجواب قبل أم يُكمل:

- كل شيء سهل المهم أنْ تُسقيني بعض الشاي..

مرت دقيقة قبل أن تدرك مغزاه, أخرجت حفنة لا بأس بها من الأموال وكانت أكثر بأضعاف مما انتظر..

انفرجت أساريره وسبقها في إشارة لتخطو خلفه وهو يردد:

- حمامة!

كان المكان تقليديا للغاية كأرشيف.. كما تشاهد بالأفلام القديمة, موظف طاعن في السن وملفات متكومة بشكل يبدو فوضاوياً ومنظماً بنفس الوقت! اكفهرت ملامح الرجل وهو يدرك هذا المطلب المجهد الذي ربما سيبحث عنه طيلة ساعات..

لقد قدم للحكومة مذكرة من قبل لنقل البيانات القديمة على الحاسب الآلي ولكن لا حياة لمن تنادي.. يكفيهم الحالي والقديم من سيسأل عنه بأية حال.

ارتاح بعض الشيء عندما همس الموظف الآخر في أذنه:

- سبوبة حلوة..

ورمق جوان التي أدركت الدفعة الثانية ووضعتها أمام العجوز المشتاق, فدبَّ السحر بساقيه وعيناه وانطلق يبحث في مقابرة صادقة.

عجيب أمر المال, حقاً هو يذيب الحديد.. يشحذ الهمام وقد يحيل العجوز صبي..

شغلت نفسها بالعبث بهاتفها المحمول أكثر من ساعة حتى جاءها الجواب وكان غاضباً للغاية:

- اسم مختار التركي ومثله طارق التركي غير موجود بالمرة يا آنسة.. تلك كشوفات العامين ولا شيء شبيه بهذا!

- ولا حتى اسم فريدة.. فريدة رستم؟

كان نبرتها يائسة وزفر هو متأففاً ومر بعينيه فوق الأوراق التي استخلصها بطلوع الروح ونتج الأمر عن ستة عشر اسماً بلفظ فريدة ولكن ولا واحدة فريدة رستم..

زفرت بضيق من غباءها وما دخل فريدة بطارق وهنا بهذا المكان..

هل ستقبل عنجهيتها أنْ يُكتب اسمها بتلك الحقارة؟!
ملامح اليأس كانت بيّنة على وجهها الجميل، تيه لا تدرك نهايته..
زفر العجوز مشفقاً عليها ودون نقود أخرى تلك المرة:
- حسناً دعينا نبحث عن فريدة ومختار بأعوامٍ أخرى.. الأمر سيأخذ وقتاً ولكن لا يقدر عليه بمصر سوى عم توفيق الجن..
ابتسمت بيأس وهو ترى الرجل الهزيل يبسط عضلات ذراعيه في قوة ساخرة، ودّت أنْ توقفه ولكنه استرسل في البحث وهو يتحاكى عن أمجاده وأعماله وسبعة أبناء وزوجة يعشقها ونصف قيراط بالبلد كما سمّى قريته واسمه الذي اتضح أنه الجنّ بحق وليست مزحة منه..
استفاقت على صوته يجلل:
- وجدتها!.. وجدتها!
استفاقت وانتبهت حواسها..
لم تتصور لوهلة أنْ اسم فريدة الذي وجده ربما مختار أو طارق فهما من تبحث عنهما، وقبل أنْ تسأل ناولها الورقة وهو يتغنى بالجواب كمن وجد مغارة علي بابا وأجساد الأربعين حرامي:
- فريدة عبد الحكيم رستم.. دخلت المشفى بتاريخ الخامس عشر من فبراير عام 1988.
تمكنت منها الصدمة ونطقت برفض لم يسمعه لأنه ببساطة لم يدرك صوتها المكتوم، أكمل الرجل بابتهاج:
- هنا المولود فتاة وتدهورت حالتها وقامت بجراحة أخرى.. استئصال الرحم!
تلعثمت بارتعاش:
- كيف؟!.. ليست فريدة انه مختار الأب وطارق.
قطب الرجل حاجبيه:
- يا ابنتي الأوراق أمامك.. انجبت فتاة اسمها غير مسجل ولكن الرجل الذي أحضرها ووقع الأوراق اسمه ماجد.. ماجد رستم.
عندها تهاوت على مقعدها ببساطة..

عيونها متحجرة ببساطة..
تمر بعقلها ذكريات مشتتة ببساطة!
ليلة موت أمها..
هروب أبيها دون حتى أن يودعها..
يفتقدها..
بكاء فريدة كمرة أولى وأخيرة بجانب فراشها..
صورة قديمة لأمها فريدة وجدتها بنبش طفولي في أشياء أمها القديمة.. فريدة ببطن منتفخ وأمها رشيقة للغاية دون بوادر حمل وعلى ظهرها مكتوب..
"للذكرى رغماً عنكِ!"
ووبختها فريدة عندما وجدت معها الصورة واستعر غضبها وجنونها وتصورت أنها ذكرتها بإجهاض سابق!
ولم تكن تدرك وقتها حقيقة أن وقت حمل فريدة كانت أمها فارغة..
وقت حمل فريدة لم يكن هناك سواها!
هي إذاً طفلة واحدة..

لا يدرك كم مر من الوقت وهو يمكث بالسيارة مراقباً قلعته المشيدة.
"الآن ماذا"!!
هل يسحب جوان خلفه نحو القصر المهيب الذي اقتنصه بعد سنوات البعاد؟..
المضحك أنه لا يريد القصر..
ولن يطيق جسده جدرانه..
هو فقط أراد نفي فريدة.
لفظها كما لفظته لسنوات متبجحة بأملاكه وعلى وجهها إهانة مستمرة له ولأبيه!
أطلق هواءً حاراً يحمل صبر سنوات. رسم وجهها بيديه وهو يراقب النافذة.
الآن سيدخل وربما يلمحها بقهوتها تراقب النافذة بغلالتها الكريمية وخصلاتها المتوهجة وهي غاضبة ولها الحق ولكن لا مجال لاعتذار!
هو الملك والملوك لا يتفوهون بأسف..
الملوك يتقنون الحب..
السطوة.. القوة التي تركع أمامها كل النساء!
يتركن صاحب الأشعار ويلهثن خلف الفارس..

محمل بجروح الحرب وسبايا انتصاره وحينها يدركن قوة المنافسة. والمنافسة تلهب الأنثى، والغضب يستعر بداخلها لتفوز وتثأر وتعشق كما لم تعشق من قبل..

وجوان تعشقه لحد الحماقة..

لحد طعن كبرياءها..

فأبت مواجهته..

وأبت الهروب..

ويخدعها عقلها بانتقام..

ويدرك هو أنه سيذهب متناثراً في رياح عند أول قُبلة..

رائحة الفانيلا دغدغت أنفاسه وهو يرسم فوق شفتيه ابتسامة..

خيالات بشأن تلك التي تتسلح بمكر فريدة هباء..

وهذا أجمل ما فيها!

صراع بين كينونة الأنثى الخاضعة بدواخلها وتمرد اكتسبته من قوانين الحياة..

وهو يعشق هذا المزيج حد الثمالة فهو مزيج ملهب للحواس.. منعش.. موقظ لخبايا العقل.

لم يلتفت لزهوة التي كانت على ما يبدو تود أن تخبره شيئاً، وأكل الدرج بخطواته نحو غرفتها وقبل أن يستدرك خطوات زهوة خلفه كانت الغرفة فارغة.

- لقد خرجت السيدة منذ الصباح.

تلكؤ زهوة كان واضحاً في الخطوات والحروف.

حرك رأسه بنصف استدارة ثم صرفها متوجهاً بتردد نحو الخزانة ليزفر بعدها بارتياح عندما لمح ملابسها..

تمتم بقسوة:

- لا تجرؤين جوان!..

أخرج هاتفه بغضب استفحل عندما أيقن رنين بجانبه!..

خرجت دون هاتفها وكأنها لا تود أن يصاحبها صوته..

ضاقت عيناه بغيظ وهو يفكر في وجهتها فهو ترك فريدة منذ أقل من ساعة ويثق أنها

ويثق أنها ليست معها..

****

- غنوة!

كانت محطته التالية...

الآن تذكر أن يُنهي الأمر..

أن يبالي بالجارية خاصته..

السراب الذي يظهر وقتما يشاء ويختفي بإشارة من اصبعه!

مغرية جداً الفكرة!..

تلك الذليلة تحت سطوته..

لا صوت..

لا تمرد..

لا رغبات..

لا شيء سواه.

ولا شيء يريده الآن!.

كان يتصور أنه سيحتفظ بها وربما غيرها وغيرها..

النساء مثلها نعمة وكائنها ببساطة غير موجودة.

كان قد قرر أن ينتصر على شهريار الأحمق الذي سلم نفسه لحكايا شهرزاد, تتغنى الليالي بأجساد النساء والعشق والجواري وكل هذا من عقل امرأة!

صدق الفلاسفة

أنتن سبب البلاء!

زفر بقنوط..

بدلته جوان!

يتلذذ بتمردها واحتواءه..

المعضلة بكل أنثى..

عقل بجسد أم جسد وأشياء أخرى..

رغم كل أحلام الرجال بها وبخصرها وشفتيها ونهديها وخصلاتها وكائتها متعة من لحم وشحم يركعون في النهاية أمام عقل علهم يفوزون بانتصار فوقه.

توقفت أفكاره في اللحظة التي فتح فيها باب الأخرى ليكتشف أن جاريته التي انتوى ترحيلها, غادرت وتركت خلفها فراشاً فارغاً

رحلت ومنذ أيام...

كانت زهوة تتمتم بغضب وحزن من زعيق طارق المحتد عليها:

- حقاً لا أعلم سيدي قد ظننت أنها أخبرتك.

صرخ صارفاً جهلها:

- أغربي عن وجهي.

تجرأت غنوة وتمردت وطلبت ورحلت..

الدور لا يليق بها ولا يرتضيه!

ازدواجية ذكر بين امرأتين..

حسناً ومن يبالي!!

قذف بمصباح عرض الحائط وهو يرمق خزانتها الفارغة وكأنه رحيل دون نية للعودة..

تراقصت شياطينه وهو يستمع لنغمة هاتفها المغلق ومن بعدها هذر أمها المعتذرة المرتبكة الصادقة في عبارة واحدة:

" لم ترها منذ شهرين!"

حينها فقط أيقن أن بصدد هروب زوجة!

انتهت الثورة بعد ساعة ومكالمة هاتفية لرجل له نفوذ، وجاءه الجواب بعد حين:

- الهاتف رصدته شركة الإتصالات.. آخر ظهور بمنطقة شعبية وكان هذا منذ ثلاثة أيام.

بنبرة مخيفة لم يقل سوى جملة واحدة

- أعطني العنوان..

****

خبايا الظلال

الفصل الرابع عشر

المساحة لا ترقى لتخطي حاجز المائتي مترا!!
هذا هو تقشف امرأة كفريدة!!..
أهدت هواءها زفرة حارة قبل أن تأمر خادمة تتعثر خلفها بفنجان قهوة. كانت الواجهة أمام نافذتها مؤلمة!
مجرد شارع بعرض عشرة أمتار ولا يرقى لمصطلح "رئيسي"..
سحبت بتوتر بالغ حياة لفافة تبغ وهي تتذكر المكالمة التي أجرتها صباحاً قبل وصول "الوريث"، وتلك الخدمة التي اضطرت متأففة أن تطلبها من شبه صديقة تشدقت للحظات بما تؤديه للملكة!
همهمت بتوعد:
"سترى طارق من يضحك أخيراً"
كان هذا قبل أن تسحب هاتفها الجوال وتنقر على رقم ابتاعته خصيصاً للهرب من حصار المتذاكي..

لم تكن تعلم أن الحاجة إليه ستأتي سريعاً، ولم تكن تعلم أيضاً أن الحظ بجانبها وأن جوان بتلك اللحظة لا تحمل غيره!
****

وها هي صفحة من هدايا الحياة..
القدمان بصعوبة تحركا، تركا عجوز وغرفة خانقة بخبايا!
وبعدها انقلب كل العالم لظلال..
المجذوب يحيا بعالمه الخاص وهدير الكون من حوله رتوش ستمر اللوحة بها أو دونها..
وهي..
هي أصبحت أخرى بغضون دقائق..
كانت تخطو للأمام بجسدها وللخلف بعقلها، أما قلبها فهوى دون رجعة.. والسقطة أصبحت مميتة!
تمر بذاكرتها فتاة صغيرة تتسول ضحكة!..
الأم الحاضرة الغائبة، والرجل الذي لم يستطع تصنع بالون الحنان فببساطة رحل..
هربت عبرة واثنان بل ثلاثة..

عفواً..

بدأ الفيضان...

بأقصى الصدمات صعوبة يتوقف العقل عن العمل، عن التفكير والتحليل والتقصي عله يهنأ..

ببساطة وقت الراحة ولىّ وحانت لحظة المشاهدة والتمتع بانتصار الألم..

كانت تظن أنها تمشي.. وتخطو.. وتجري.. وتهرب.. ولكن ببساطة هي لم تكن شيء سوى سيقان متراخية على درجات مشفى شهد بدايتها ونهايتها بذات الحين..

هي صورة مهتزة لامرأة بمنتصف عقدها الثالث باكية على أبواب مشفى ليس لأنها فقدت أهلها بل وجدتهم!..

ولأن شياطين العبثية أبت أن تتركها لحالها، لم تمض دقائق حتى صرخ الهاتف باسمها متهادياً..

رمقت الشاشة المضيئة بعدم تصديق وهي تتمتم ساخرة:

- فريدة!!..

اتكأت بمرفقيها على الدرجات المتسخة خلفها غير مبالية لا لملابسها ولا بلوحة السيقان المرمرية التي جذبت المارة، بل تمكن منها الجنون لتدندن مع مقطوعتها الموسيقة المفضلة وهي تعلن عن الاتصال مرة تلو أخرى!

تغني وتبكي..

تتذكر وتبكي..

تكرهه وتبكي..

نادمة وتبكي..

خائفة وتبكي..

رافضة وتبكي..

وفجأة عم الصمت!

توقف الهاتف وموسيقاه والمارة حولها وذرات الهواء وترصدت بها العيون بين دهشة وشفقة.. وكأنهم عالمها المخملي لكن دون مجوهراتهم الباهظة وبريق الحقد بأعينهم...

اعتدلت متصنعة الشموخ ولملمت فوضاها ودموعها، للمرة الأولى تشعر أن الدنيا تدور

بفلكها وهي حقاً لا تود ذلك!

ولم يبخل عليها القدر بابتسامة عندما لمحت رسالة فريدة النصية

" تعالي فوراً لهذا العنوان"

****

البداية كانت مع هدية إجبارية من الأم..

شبيهة الأم!

- احتفظي بهذا الهاتف..

- ما هذا؟!.. لدي هاتفي.

- فاتورته يراها طارق.. اقتنصي من خلفه بعض الخصوصية!

- لا أحتاجه خالتي.

- أنا أحتاجه.

- عفواً؟

- احتفظي به جوانك دون استفسارات عقيمة..

سأحادثك عليه من حين لآخر.

- حاضر..

بإذعان ربما كما اعتادت بمواقف كثيرة..

حاضر..

أخذت الهاتف واحتفظت به دون أن تدرك سر جنون خالتها العنيد بشأنه وكأنها تدبر لطارق مكيدة وهو يهديها أخرى بدوره.

ضحكت مع ناقوس الذكرى!

لم تكن تعلم أنها هي المكيدة..

و

الجائزة..

و

القربان..

و

الحقيقة المخزية بعالم الجميع بما فيهم طارق..

وضعت الهاتف بحقيبتها وتركت سيارتها واستوقفت سيارة أجرة..

تريدها فريدة وستذهب إليها!.

****

"القهوة سيدتي"

كانت يدا الخادمة مرتجفة فهي وجدت نفسها في ليلة وضحاها في خدمة تلك الجميلة القاسية التي تجرعت حتى الآن أربع فناجين قهوة وعلبة كاملة من السجائر!.

سحبت فريدة الفنجان الخامس وهي ما زالت على حالها..

منتصبة أمام النافذة تراقب لا شيء..

رجل يبيع فاكهة معطوبة والجمع غفير فهو يصرخ بثمن بخس سيخفي العيوب بالتأكيد..

على الناصية محل أزهار!

تمتمت حانقة باسمه وكأنه هو وحده سبب مصيبتها..

تكرهه لأنه ببساطة تمكن منها كما لم يتمكن رجل من قبل..

عشقته..

طردت سيرته من عقلها بعنف وكأنه وحده سبب البلاء..

كانت تفكر بأمر واحد لا يستحق عقلها

سواه..

طارق..

باهتزاز غريب عليها لمحت ساعتها دون صبر كانت ترتب بعقلها مقولات وأفكار..

الهاتف فكرة عبقرية واتتها من فترة قصيرة فطارق هذا بدا غامضاً.. متوعداً..

وكأنه بخبث قرر أن يستأثر بجوان وكل شيء..

ألم يهذي بها من قبل عندما فاجأها بزيارة باردة مثله!.

الساعة تمر ببطء قاتل أم ربما هو الكافيين الذي سيقتلها قريباً!

ستخبر جوان عن جنون ثأره..

ستحذرها من كذب قادم ولكن ستبقيها على ذمته فالهرب من براثن الوحش ليس بالحكمة في لحظة اهتياجه..

الدهاء هو في التربص وتقدير الوقت المناسب..

عندها فقط ستهنأ بانكساره..

ستحرمه من فلذة كبده كما انتوى بها، أو هكذا ستوهمه..

فقط تسمعها جوان!

أخرجها من هذيان غرورها صوت الباب والخادمة تردد:

- تفضلي يا آنسة..

ابتسمت أخيراً وبراحة..

لقد جاءت جوان..

لأول مرة تتعثر!

بالفعل كادت أن تهوى وهي تتخبط بقطع الأثاث..

لعنت في سرها ابن الخادمة الذي أسقطها بين ليلة وضحاها بمكان لا يليق..

ولكن صبراً..

أمسكت بيد جوان دون أن تلاحظ اختلاف ملامحها..

حمرة العين.. انتفاخ الجفون..

وقبل كل هذا ملامح الوعيد.

سحبت فريدة ابنتها لتُجلسها بمقعد قريب وهي تتمتم:

- الحقير يقتنص مني القصر ويظن أنه انتصر..

ولكن لن يهنأ جوان.. لن يهنأ.

كانت جوان صلبة كحجر تراقب انفعالات فريدة وكأنها امرأة أخرى تراها لأول مرة.

نعم فعندما نصطدم بحقيقة غائبة لأشخاص حولنا ستتبدل ملامحهم.. سنشعر أنهم آخرون غير الذين اعتدناهم, قد نراهم ملائكة وقد ينقلبون وحوشاً..

تابعت فريدة دون أن تدرك أن بقلبها امرأة أخرى... أهم.

- أريدك أن لا تثقي به جوان.. هو يدبر أمراً ما وأيضاً الرحيل ليس باختيار متاح الآن..

سنتواصل سوياً من خلال هذا الهاتف وسأخبرك بما ستفعلينه لاحقاً.. فقط دوامي على الابتسامة والكذب, ولا تدعيه يقترب منكِ هل فهمتِ؟.. لن أدعك لهذا المجنون..

سأنهي تلك الزيجة بالوقت المناسب.. سأكفر عن خطئي..

أخيرا نطقت الإبنة..

أخيراً وجدت مخرج لصمتها ولثورة البركان..

بانفعال مكتوم سمعت فريدة همساً قاتلاً:
- أي خطأ منهم زيجتي أم خيانتك؟.. أمي!!
لو أنها لم تلمح تلك النظرة بوجه ابنتها لبررت للجملة ألف سبب وسبب, ولكن العين تتخطى جدران العقول وسرد الكلمات..
العين بهجة وألم ونصل حاد يصل للقلب دون رادع..
رأتها بعينيها قبل صوتها..
"أمي!"
الآن فقط تلاحظ..
حمرة العين.. وألم القلب.. وارتجاف الثغر الذي من قبل كان باسماً.. خانتها الذكرى لممرضة تحمل رضيعة بخصلات شقراء.. تتمتم بآيات قرآنية وتصرف عين الحسد عن الفاتنة بعمر يوم.
لم تحملها تلك الليلة..
تركتها لمن أرادت أمومة فوق بقايا رحمها..
تركتها لليالٍ عدة فهي اختارت ألا تكون الأم!

وكان الأمومة اختيار!
غريزتها بدت بتلك اللحظة مؤلمة.. ربما أكثر إيلاماً من أي وقت كان.. من لفظ أمي لامرأة أخرى حتى ولو كانت أختها!
من تمرد على خالة ترقى لتكون أخت كبرى وليس أكثر
لوجع الحرمان الذي أراده طارق, وسخرية الحقيقة التي صفعت دون رحمة الجميع..
الأقسى كانت نظرة جوان..
كانت تحمل كل معنى سوى الحب..
سوى الإشتياق الذي طالما ادخرته لراحلة التصقت بها في ورق ميلاد.
أغمضت عينيها مع ابتلاع غصة بدا كدهر..
بعد حين همست بمجاهدة:
- متى أخبرك؟
ضحكت جوان..
الإبتسامة خلاص فالحقائق تتجلى بيسر موجع..
كما توقعت..
هو يعلم..

والعشاء مجرد مقدمة وكأنه وجبة ثقيلة من المقبلات!

ظلت تتأملها دون حراك، فريدة تحبس فيضان ولا تعلم أهو بكاء من أجلها أم بسببها..

شعرت باختناق فتركت مكانها وتوجهت نحو النافذة ولكنه كان اختناقاً يأبى حيلة الهواء.

اختناق روح تعيش ألماً يبدو نهائياً، ارتعشت عندما شعرت بقبضتها الباردة فوق ذراعيها..

تلك هي المرة الأولى التي تختبر فيها برودة أنامل فريدة بتلك القسوة.. برودة أجبرتها على الابتعاد بلغة جسد لا تقول سوى شيء واحد..

"لا أريدك"

تنهدت فريدة وهي تدرك أن أحلك لحظاتها سواداً تحيط بها من كل جانب، حتى التوعد لم تعد قادرة عليه..

ليت الأمر ينتهي بعناق..

عناق حقيقي ربما تبث فيه ما اختزلته لزمن حتى

حتى ظنت أنها فقدته.

قبل أن تفكر بقول جمدها هدوء عبارة أخرى من جوان، جملة بسيطة ولكن صارمة لا تقبل جدال:

- من يكون؟

اهتزت أهدابها باضطراب، حاولت الهروب.. التصنع.. التذاكي عن صاحب السؤال!

أعادتها جوان بحسم أقسى:

- من يكون؟

لو الجواب خطأ فستتخطى ما بعد الخسارة، ولو صحيح فالفداحة غير هينة!

تحشرج صوتها باختناق لم يشفع لها وهبت العبرات منتفضة فستخرج أخيراً من حجر مقلتين لم تختبرا سوى الصلابة

وكأنه انتصار الخذلان..

أومأت بألم قبل أن تهمس بكفاح:

- راضي.

رفعت بصرها لتراقب بقايا القذيفة..

ولكن لم تلمح شيء.. مجرد رحيل!

صرخت تستوقفها بيأس:
- جوااان..
توقفت بالفعل ولكن دون استدارة..
قالت بنبرة بدت ثقيلة على لسانها:
- صدق حدسي!
قبل أن تصل يد فريدة الممدودة نحوها تابعت بقسوة علها تهزم بوادر الإنهيار بداخلها:
- وداعاً أمي.. وداعاً للأبد!
رحلت..
رحلت دون أن تستدير لاستجداء الملكة البائس بصراخ:
- لاا.. جوااااان
****
غداء تقليدي للغاية... ورائع..
ابتسمت عندما لمحته يحمل بطيخة بين راحة يديه وكأنها كنز ويطلب منها أن تناوله بعض الأطباق..
ابتسمت في داخلها شفقة عليه فهي تعلم أن أوان الفاكهة لم يحن بعد وحتماً ستكون بلا

بلا طعم. ولكنه كرر أكثر من مرة أنها فاكهة عبير المفضلة ولم يستطع مقاومة احضارها..
أزاحته متولية عملية التقطيع بحرفية أنثى تستأثر بمملكتها وراقبها راضياً وهي تشمر عن ذراعيها وتشرع في تجهيز التحلية ببهجة غامضة..
فتاة غريبة تبهرها أشياء بسيطة وعادية للغاية..
هل تفتقد للأسرة؟..
للأب...
لحنان أخ؟..
أم ربما لهفة أخت؟.
يود أن يقتنص من هذا الرأس الصامت كل الأسرار..
الماضي.. والحاضر.. وأماني القادم إن استطاع..
استدارتها أجفلته فقد كانت منبهرة بشكل مبالغ فيه!

سألها:

- ماذا؟

ابتسمت ودفعت إلى فمه بشوكة وقطعة حمراء ندية ويال الحظ كانت أفضل ثمرة بطيخ تذوقها بحياته..

ربما لأنها تحمل عبقها، تلك الهادئة تتمكن منه يوماً تلو آخر متسللة بنكهة لا تقاوم ألا وهي الاعتياد.

كانت عبير تأكل بنهم حتى أنها لوثت ملابسها وتناثرت الفوضى حول شفتيها، وعندما حاول بلال سحب بعض المحارم لتقليل الضرر أوقفته غنوة بإشارة منوهة أنها ستقوم بتبديل ملابسها بعد أن تنتهي..

لم تكد تغمض عينيها في سلام انتقائي للحظة حتى صرخ الباب بطرقات موجعة..

ارتعشت كلها فمن عساه يضرب الباب بتلك الهمجية..

لا أحد يزور بلال.. لا أقارب.. لا متطفلين.. فقط جارة لمحتها وسألت.. وبرر هو بأنها قريبته وستمكث لعدة أيام، ولم تعد المرأة مرة أخرى.. وطلب هو منها بلطف أن تبتعد عن النافذة قدر الإمكان حتى لا تثير الأقاويل..

الجسد خلف الباب المزخرف تعرفه!

تعبث بصدرها هواجس شيطان مذعور..

نعم فالهلع سيصيب شيطانها قبل ملاكها وتلاثتهم يرتعدون منه..

لم يكد بلال يفتح الباب حتى لمح رجلاً بملامح محتدة وبعدها قبضة أزاحته عنوة حتى ارتطم بالحائط..

كان بلال أطول قامة من طارق، ولكنه لم يكن يوازي قوة قبضته خاصة أن الثاني كان في قمة غضبه وزاد عندما لمحها تجلس بأريحية بجانب امرأة تبدو معاقة وتحمل بين قبضتيها طبق من الفاكهة.

تعيش هنا مع هذا الغريب بكل بساطة غير مبالية أنها تحت عصمته!

هل هو انتقام؟..

أهي اللعنة المستترة للجواري؟!..

جارية انكمشت عندما لمحته وفعلياً اختبئت خلف جسد المرأة الطفلة حماية منه.

لماذا جاء؟!

لما ظهر من العدم؟..

ليقتلها من جديد!..

الجمال بعالمها قصير العمر، والآن هي تُدفع دون إرادة نحو بوابة جحيم..

صرخة عبير أفزعت الجميع، فطارق بشرار متهور سحبها من ذراعها حتى ينفرد بوجه غنوة ويهديه صفعة..

بل صفعات متتالية فجرت بجانب ثغرها منبع دماء فتلوث الوجه النقي بحمرة الانتقام..

صرخت ليس من الألم، بل حين لمحت يدا بلال تطوق جسد طارق بغضب ليدفعه أقصى اليمين فارتطم كلاهما بخزانة قديمة تبعثرت محتوياتها فوق رؤوسهما..

تركه بلال وتوجه مسرعاً نحو عبير ليطمئن عليها وأدار وجه غنوة بألم وهو يرمق الكدمة فوق شفتيها..

استدار بغيظ لم يمهله طارق الوقت فعندها أخرج من جيبه مسدساً ثقيلا ووجَّهه نحو الجميع وهو يهذر بقسوة:

- لن أتلقى اللوم في إزهاق الخيانة!

لو عرفت غنوة طارق..

لو فهمته..

لو رأته كزوج.. ولو اختبرها حقاً كزوجة، لكانت أيقنت أنه حتماً لن يطلق الرصاص..

لن يغامر باسمه من أجلها، وهي لا تكون أكثر من مجرد وسيلة استنفذت أسهمها..

ولكن ماذا تعرف غنوة!

ومن علمها أن تعرف؟

أن تحزر..

أن تفكر..

لا شيء..

وفعلياً كان الصمت قاتلاً مع فوهة السلاح حتى انطلقت صرخة أجفلت الجميع..

كلمة..

"لا أرجوك"

سمّرتهم جميعاً وهم يراقبون الخرساء تنطق!..

- بلال.. أرجوك سامحني.

نطقتها بحشرجة مريرة من بين عبرات ألهبت وجنتيها كسياط..

كان بدوره جامداً يرمق المسرحية الهزلية أمامه دون فهم، والأقسى أن المسرحية ابتدئت منذ حين..

منذ رآها وأدعت أنها خرساء!

الطامة كانت في التالية..

العبارة التي بلورت حماقته وكيف خدعته مدعية البراءة بعمر العشرين، توجهت نحو طارق بخطى تكاد تكون زاحفة لتُكمل استجداء لا تعرف غيره:

- أرجوك لا تؤذيه، فليس له ذنب الخطأ خطئي أنا.. ساعود معك وسافعل كل ما تأمرني به.. فقط اتركه بسلام.

ما بال النساء في الكون!!..

هل تلتصق بأرحامهن الخديعة!..

تلك التي أحضرها متعثرة بحذاء مهترىء وثياب رثة وجسد عرف معنى الأنوثة على يديه..

ظن أنها لم تكن تعلم بالكون سوى عالمه..

ولا تأمل من الحياة ظل رجل سواه..

هو الفرصة التي لا تعوض..

وهي تحيا بعبوديتها راضية تحت جناحه..

وماذا ستريد غير ذلك؟!!..

فقد وفر لها سبيل حياة لم تكن لتحلم به..

ويثق جيداً أنه كان سينالها حتى من دون ورقة إن أراد.

ولكنها فداحة خطأه التي يدفعها الآن، هو من أعطى اسمه لنكرة كناية بجوان..

كناية بامرأة جسد تلك المرتجفة أمامه لا يساوي خصلة واحدة من الذهب المسترسل فوق ظهرها.

بهدوء غريب سحب مقعداً وجلس في مواجهتها بعجرفة مهينة..

وضع سلاحه بجيبه مرة أخرى.. ورمق الغرفة من جديد ببلال المصدوم والمرأة الخائفة بأحد

الزوايا ثم أردف بصوت خشن:

- لما إدعيت الخرس؟

أجفلها..

وكأنها أدركت الآن أنها ببساطة تكلمت!

رمقت بلال بعبرات منهمرة ثم جاوبت بتردد:

- سأخبرك كل شيء بطريق العودة.

استقام طارق ليواجهها بقسوة أتبعها بفحيح منذر:

- أنتِ لن تعودي للقصر غنوة.

برقت عيناها دون فهم ليتابع بهمس مهين فوق أذنيها:

- لقد طلقتك.. فهاربة من بيتي لا تستحق اسمي، وأصلاً لم تكن تستحقه منذ البداية.

لا تعلم هل تفرح لحريتها أم تحزن لمهانة كلماته..

لم يمهلها الوقت حتى نعمة التفكير..

جذبها طارق من ذراعها ليصبح فحيحه موجعاً:

- والآن لما كذبتِ يا صاحبة الصوت الصادح؟..

هل أنا بصدد مؤامرة من نوع ما؟

- لا

ردة فعلها كانت دفاعية...

آخر ما ينقصها أن يظن هذا المتجبر أنها تآمرت عليه، عندها ستكون هالكة لا محالة.

ظلت تهذي عن خوف.. وموت أب.. وعيب ادعته حتى لا يزوجوها بأول طارق للباب وتواجه مصيراً ربما أسوأ من أخواتها..

لم تكن تعلم أن المستقبل يدخر لها طارق آخر ستذوق بين ذراعيه شقاء من نوع مختلف..

ثرثرة يائسة استمع لها مضطراً ولكنها لم تشفي غليله..

هروبها لآخر يطعن رجولته ولا يتراقص أمام عينيه سوى الإنتقام.

صمت لوهلة قبل أن يرمق بلال باحتقار بينٌ ويتابع:

- ووجدتِ ضالتك بشبه الرجل ذاك؟..

ارتبكت باكية باضطراب تلك المرة:

- أرجوك.. بلال ليس له ذنب فقد ساعدني

كأخت له، أخبرته أنني لا أملك مكاناً أذهب إليه.

زفر طارق بغضب مكتوم..

يود بتلك اللحظة أن يفتك بها وبهذا الشاب الأحمق، ولكن همهمة الناس خلف الباب والتجمع الفضولي يحول دون أي شيء.

استقام وأشار لها بمهانة دون أن ينظر لوجهها:

- هيا

تبدلت ملامحها ووجلت للحظات قبل أن تسأله:

- إلى أين؟

رمقها بسخرية:

- ألم تقولي أنكِ ستأتين معي لأتركه لحاله؟!

تمتمت بتردد:

- ولكنك أخبرتني أنني لن أعود للقصر، وأنك..

أومأ بكبرياء:

- نعم.. طلقتك..

تجولت ببصرها في حيرة واشتياق نحو المكان الذي ستتركه مرغمة ثم تابعت بضعف:

- إذاً أين سأذهب؟

ابتسم طارق بمكر شيطاني قبل أن يتابع:

- لدي مكان يليق بكِ، وأعتقد أننا لن نحتاج لعقد زواج تلك المرة!!.. ولا تقلقي لن أبخسك حقكِ..

تميد الأرض تحت قدميها وتتقلص فوقها الجدران لتصبح كالقبر.

الوحشة مؤلمة ولا تضاهي شيء مما مرت به من قبل..

الخزي بعينيها يخشى النظر نحو بلال وأيقنت بتلك اللحظة أنه لا طارق أنها يوماً لم تبال بطارق، وأنه لم يكن ليطلق الرصاص..

بعد صمت طويل أيقنت أنها راكعة على ركبتيها أمام قدميه دون حراك!..

لم يكسر هذا الحاجز المؤلم سوى طفلة...

من العدم تقدمت عبير لتربت فوق كتفيها:

- لا تبكِ غنوة.. لا تذهبي مع هذا الوحش.

الجملة أجفلت الصامت الذي ظل يراقب العرض مستنداً للحائط بندم..

هل هو ندم على طيبته؟.. أم ثقته؟..

أم قلبه الذي دق لمن لا تستحق...

وعبير تحتضن تلك التي لا تستحق..

ارتبطت بها ولا تود التخلي عنها!..

غص حلقه بألم، فستتألم عبير لرحيلها وهو المذنب وليس غيره...

عاد للواقع منتصباً بخطوات ثابتة نحو طارق متابعاً بنبرة قاطعة:

- غنوة لن تذهب معك لأي مكان.

استدار طارق ليواجه هذيان رجل أحمق بكل ما تحمله الكلمة من معنى، من هذا الذي انتفض يدافع عنها بلحظة أخيرة؟..

والأهم لماذا؟!..

أزاحه طارق من كتفه بتوعد وهو يردد:

- لا توجه نظري نحوك فأنا أودك أن تعيش بسلام من أجل تلك المريضة.

كان يقولها وهو يشير لعبير التي ترقرقت عيناها ببكاء بريء:

- أخي.. أنا لست مريضة!

عبارة بسيطة جداً أجفلت طارق واستعر الغضب بوجه بلال...

عبير منطقة محظورة على الجميع..

دموع عبير كنزه الماسي والتفريط فيه عذاب قلب لا يتحمله..

استدار ليواجه طارق بقسوة ليطلق بعدها تحذير صارم:

- الجمع خلف بابي يتضور فضولاً، وسأخبرهم أنها ابنة خالتي وأنك طليقها الغني الذي يود اذلالها من جديد.. رغم حنقهم من استضافتي لها ستتطوع امرأة مؤكدة أنها كانت تبيت عندها، وسيحملك رجال الحي عنوة للخارج ولن تفلح حلتك الأنيقة في اقناعهم.. أمامك دقيقة يا سيد لتخرج بكرامة!!

توهج الغضب بعين طارق وارتفعت قبضتيه تحملان بلال في الهواء، زعق بقسوة:

- هل تهددني يا أنت؟!.. يبدو أنك تجهل من يكون طارق التركي!

كان بلال متماسكاً لحد كبير...

تدفعه قوى حماية غريبة نحو امرأة تساق قهراً نحو فراش!..

حتى وإن توسدته برضى من قبل..

زفر بهدوء مستجمعاً طاقته حتى خلص نفسه من قبضة طارق ثم أردف:

- وأنت تجهل كيف يكون الرجال سيد طارق..

بعدها اختلف كل شيء في لحظة..

انقض طارق فوق بلال يوسعه ضرباً، وهربت هي بعبير بجوار حائط، وانكسر الباب دافعاً جمعاً من البشر فرقوا بين المتصارعين..

ورحل طارق كما أخبره بلال، ولكن ليس بحلة أنيقة بل بهبة معركة أراد أن يخوضها كرجل حتى وإن جنى الجروح.

****

- أمامك عشر دقائق.. لقد وفرت لك السيدة نجية مكاناً للمبيت الليلة وغداً تبحثين عن أحمق آخر..

كانت عبارته قاسية ليست فقط بالكلمات ولكن لأنها صادرة منه..

البسمة التي اقتحمت عالمها بصمت..

الرجل الذي بلور قلبها مثل أي فتاة تستحق الحب أم ربما إحدى نفحاته.. الفرصة التي أضاعتها بكذبة.

حاولت أن تنطق فأوقفها بإشارة إصبع، ورغم ذلك همست بمجاهدة:

- آسفة..

أخرج لفافة تبغ، لا يلجأ إليها سوى بأقصى لحظاته كمداً..

أضاف بنبرة جافة:

- لدي صديق يبحث عن فتاة تدير شأن متجر صغير.. إن أردتِ سأوفر لكِ تلك الفرصة.

تمكن منها عدم التصديق..

هل يساعدها؟!..

هل يمنحها فرصة؟!..

أومأت بموافقة صامتة أدمتها، ابتسم ساخراً قبل أن يتابع:

- سيوفر لكِ سكناً متواضعاً والراتب ليس

سيء.. القرار قرارك إما هذا وإما أن تعودي لمالكك..

آلمتها العبارة وأيقظت نهر عبرات من جديد وكان يقصد..

همست بحشرجة مناضلة:

- أشكرك على الفرصة.

- جيد

قالها وهو يتابع المارة دون نظر نحوها..

كان يجاهد حتى لا يضعف أمام بكائها..

لا يجوز

تابع بقسوة:

- ولكن لدي شرط..

انتبهت بجميع حواسها نحوه، كانت بتيه مربك لا تعلم البداية من النهاية وهو اختتم الرواية بجملة أخيرة..

- لا أود رؤية وجهك مرة أخرى..

في العلاقات عادة كذبة واحدة كفيلة بأن تبدأ الفيضان..

مجرد كذبة واحدة..

سطور..

حروف..

ثلاثة..

أربعة..

عشرة..

مائة..

وسيختلف من بعدها الأمر..

تتخذ الظنون للعقل دروباً وتهوى الثقة للأرض السابعة في خزي..

ننسج الحكايات وتتملكنا الهواجس..

الشكوك..

تقفز لرؤيانا مسميات غريبة..

وبدهاليز عقلنا يتولد آخرون غيرنا..

والأمر كله يبدأ بكذبة واحدة!..

كان الظلام قد حل بالفعل..
ظلام الليل وظلام قلبه..
انطلق بسيارته مبتعداً عن الهمج وهجومهم البدائي عليه وكأنه ثري أحمق قرروا أن يلقنوه درساً..
هو المخطئ..
هو المُلام..
هو من اختار خادمة لتصبح زوجة!
أوقف السيارة وظل يرمق صورته بالمرآة ضاحكاً بهستيريا..
بأحلك أزماته وجنون غضبه يصبح مثلها..
برجوازياً.. قاسياً.. متباهي..
مثل فريدة!
سحب هاتفه يبحث عنها..
بتلك اللحظة يشعر أنها دواءه وكان توسُد صدرها قد يعيده لشخص آخر
معها فقط يشعر بإنسانية وأدها باختياره..
ولكن..
لا شيء الهاتف مغلق!

وهاتف آخر لم يكن مغلقاً..
رسالة نصية من امرأة غريبة جاهدت لتصل إليه أو لزوجته
"فريدة بالعناية المركزة"
صفية الشوربجي..
صديقة لفريدة منذ زمن وساعدتها صباحاً في إيجاد شقة سريعاً لتنتقل إليها..
جزء منها كان متباهياً بشدة أن الملكة قصدتها في احتياج، ولكن جزء آخر انساني شعر بالشفقة عليها خاصة عندما حادثتها الخادمة مذعورة وهي تبلغها عن إنهيار فريدة فوق أرضية المنزل دون حراك..
انطلق طارق بجنون نحو المشفى..
لم يكن بخطته موت فريدة..
رحيل يتبعه راحة وكأنها حقود قررت التحايل على هزيمتها بالموت!
ما أيقظ شياطينه هي عبارة صفية الأخيرة عن محاولتها اليائسة للوصول نحو جوان، رغم أن الخادمة أكدت زيارتها لفريدة قبل سقوطها

بوقت قليل..

جواد.. فريدة.. زيارة..

الخيوط تبعثرت مكونة كرة ضخمة من العقد غير قابلة للحل..

تنسل من بين يديه ليصبح ضيف شرف للمشاهدة فقط..

أخبره طبيب..

نزيف بالمخ ولكن احتويناه..

الملكة لديها فرصة للنجاة إذاً.

تم منع الزيارة ولكنه راقب شقرتها الباهتة من تحت أسلاكٍ ومحاليل. وبلهفة طلبها منذ وقت استعاد انسانيته وشعر بالشفقة..

لم يرحل..

قضى الليل على مقعد يراقب خفوت شمس ويجتهد بحثاً عن أخرى..

لم يترك شيء ولا مجال إلا بحث بشأنه وأرسل في أثرها الشرطة نفسها وليته ما وجد الجواب..

السيارة المتوقفة أمام مشفى يحمل حقيقة ظن

أنها لن تطفو سوى بقدرته..

لقد علمت جواد.

****

- غراب أزهار!

ألجمته الصدمة..

هي بباب بيته!

باكية!

مرتعدة!

صفراء الوجه والشفاة اقتربت من بياض..

لم يكن هناك وقت للجدال..

للسؤال..

لعبث العقل..

سقطت مغشياً عليها بين ذراعيه قبل أن تتمتم بشبه صوت:

- أبي.. غراب الأزهار.

الخاتمة

هي..
ذات صباح..
وقهوة..
وشبه ابتسامة..
وحضور..
أحقاً هذا حضور!
هي بجانبه وتهديه نظرة..
لم يختبر الدنيا بهذا الكرم من قبل أم ربما هو الغفران!!..
يا الله..
خفف عنها يا الله..
لا تحرمني منها يا الله..
بعد كل صلاة ينفرد بدعاء..
وما أجملها من كلمات تخرج من قلب أب..
كانت هي حينها بغرفة أخرى ترمق حالها بمرآة تركت مثلها أخرى بقصر مهيب. .
لا..

بل كئيب.
تحت جنح رجل بلا قلب..
هناك بين الجدران الرمادية التي تصطنع الألوان..
بين الظلال التي تدَّعي الحياة..
تركت امرأة كانت تحمل بين شفتيها يوماً ابتسامة!
مرت ثمانية أشهر حتى الآن..
منذ أن طرقت بابه بلحظة انفجار ويال العجب احتوها بحرفية مزارع صبور..
لم يسألها حينها كيف عرفته وكيف توصلت لمكانه..
انتهى كل شيء مع لفظ أبي..
حينها حملها بين ذراعيه.. دثرها بفراش..
وأهدى رأسها قبلة عميقة..
ورغم كل الألم شعرت وقتها بارتياح.. ا رتياح لم تود تشويهه بسؤال.. ولا بجدال..
وحتى الحساب فقدت الرغبة به..
معه أرادت اختبار شعور واحد لا غيره ألا

وهو..
السماح.
بصباح رددتها لنفسها وسمعها هو..
" لا أستطيع أن أسامح سواك.. ولا أستطيع العيش بمنبع طوفان"
حينها أدرك أنها بحاجة لهروب, وبعد يومين كانا بمكان آخر..
يبعد عن الماضي مئات الأميال..
رائحة اليود ببحر ثائر أيقظتها وكانت اختبار مختلف للحياة..
نظرت نحوه:
- لم تسألني كيف عرفت؟
- لا أهتم سوى بوجودك.
- تخاف الحديث علّني أرحل.. ربما أستفيق من ذاك الهذيان.
أومأ مؤكداً:
- نعم.
جلست وداعبت الرمال وحادثته دون أن تحيد بصرها عن الأمواج:

- كنت قد اعتدت ورودك.. أزهارك.. لعبة الكنز الذي وجدت به تميمة الحياة.. يال القدر تساعدني لكي أحمل صورة أب سواك!
ألم غامض اجتاح قلبه..
وجع ظن أنه اعتاده مع كل لحظة شوق نحوها ولكن الذكرى قاسية على كلاهما.
تابعت بنبرة شجية:
- وبعدها اختفيت.. لم أدرك لما وكيف؟..
وكنت كلما أقبض على تميمة أمي أشتاق إليك.. لم يكن افتتان مراهقة برجل وسيم, ولكني كنت أشعر معك بالراحة وكأنني اعتدت اهتمامك.. حينها قررت بجنون أن أبحث عنك واستطعت الحصول على عنوانك من أوراق العم مختار مع قرار جنوني بزيارتك والسؤال.. بالطبع لم أستطع تنفيذ شيء وظهرت أنت بعدها بأيام متحاشياً النظر نحوي!
أغمض عينيه كاتماً عبرة..
يتذكر كيف جن جنونه به هذا الوقت..

وسوس له شيطانه أن يختطفها وينعم
بصحبتها وحق أبوته، وعندما أدرك حماقة
أفكاره آثر الإبتعاد..
قرر أن يظل مجرد البستاني الأجير ويراقب من
بعيد ويشتاق ويتألم مكفراً ذنب بدا مستمراً.
وبعدها هي ابتعدت وحاولت أن تصبح فريدة
كربيبتها ربما تحصد النعيم..
احتوى أناملها المرتعشة بين يديه، تساءلت:
- لن يجدوني كما وجدتك؟
طمأنها محتضناً جسدها المرتعش بين ذراعيه:
- إن كنت قادر على شيء بهذا العبث فهو
الحياة في ثوب الظلال وقد اختبرتِ هذا
بنفسك.
ابتسمت بتردد فتابع وهو يتأمل البحر بغموض:
- انتهى وقت ظلال الماضي، جوان.

ومرت الشهور..
ثلاثة..
أربعة..

ثمانية..
لم تكن تعلم عنه شيء ولا تريد..
ونسيت الأم التي نبذتها..
والحياة التي اعتادتها..
وارتدت ثوب امرأة أخرى تقنع حالها أنها
أكثر سعادة..
وبات هو يعلم أن الوردة بجانبه، ولكن تذبل
يوماً تلو آخر..
ضحك وأنهى دعاءه بقرار
جنون لابد منه.

****

أصبحت تتردد في إيقاظه، منذ اليوم الملعون
وبات آخر..
أكثر مرارة مما قبل..
في البداية كان يصطنع القوة والسطوة
والسعادة والتجبر رغم حزن عينيه ولكن الآن
لم يعد يبال حتى بإظهار تلك الوحشة القاتمة
داخله.
ابتلعت غصتها ودفعت بجسدها السمين

للغرفة الخانقة، ككل ليلة عبق التبغ قاتل حتى لجراثيمه!..

وضعت الإفطار على طاولة بجانبه، وكان هو لم يغادر الفراش بعد.. يمسك بحاسوبه مؤدياً عمله بروتين قاتل قلب الليل النهار وكأنه حمى العمل ستشفيه..

ظلت صامدة مكانها حتى سمعت زعيقه الحاد:

- اذهبي زهوة.

- ولكن...

كانت مترددة...

رمقها بغضب فهو ليس لديه وقت لثرثرتها..

لم تنطق ناولته ورقة تبدو كإعلان، زفر دون صبر وسحب الورقة صارفاً خادمته قبل أن ينفجر بوجهها..

تضيع وقته بإعلان مهترئ ربما جاء مع جريدة! قذف الورقة بجانبه دون اهتمام وعاد لحاسوبه يعمل ويطرد أفكار..

يطرد بحث مضني استمر لأشهر دون أثر..

يطرد غيظ يكبر يوماً بعد يوم مع فقدانها..

يكرهها..

يحبها..

يريدها..

ويتوعدها..

ويجهز من أجلها اعتذار!

فقط تعود..

انتصب وحينها لمح طرف عينيه كلمة.. حروف جذبت بصره ليلتهمها واحدٍ تلو آخر..

لم يكن مجرد إعلان..

كان الخلاص والنعيم والغاية التي يلهث خلفها منذ زمن..

أخيراً ظهر غراب الأزهار..

" فرصة ممتازة.. حديقة رائعة تحتوي على أربع أنواع مميزة من الورود.. الجوري، الوانكا، الأوركيد والنرجس.."

لم يصدق نفسه..

عادت لشفتيه ابتسامة فقدها منذ رحلت وارتدى ملابسه على عجالة في إثرها..

الفانيلا التي هربت لمدينة ساحلية.
****

هل اختارت هواء البحر بخبث فاتنة؟!..
يبعثر خصلاتها يميناً ويساراً والأحمق في مواجهتها هائم بين دربين، أم ربما هو تائه بفعل سحر تلك الابتسامة حتى وإن كانت باهتة..
اشتياقه كبح غضبه وألجم غيرته، فتلك الواقفة على بعد أمتار امرأته وبجوارها متطفل..
على الجانب الآخر كانت هي تحادث رفيقها بجدية تامة تمسك بإحدى يديها ورقة وعلى ما يبدو أنها توضح شيئاً, وباليد الأخرى تعارك الخصلات الثائرة دون جدوى.
معلمة لغة فرنسية بمعهد ما..
ويراها كل يوم أناسٌ ما ويستمعون لصوتها وأعينهم تقتنص منها رؤيا سواه.
"انتهت اللعبة جوان.. لقد عدت"
كل خطوة نحوها كانت تذكره بحديث أب اختبره منذ قليل..

عراب الأزهار الذي أيقن أن سعادة ابنته بيد جلاد!
سأله متحيراً:
- أنت آخر رجل قد يسلمها إليّ!
وكان جوابه أصدق ما سمع بحياته:
- تعلم أن تثق بحدس أب..
وهي..
هي انقلب عالمها رأساً على عقب للحظة رؤياه..
متبختراً..
متعاظماً..
مبتسماً..
باهتاً..
كان يبدو مختلفاً ولكن يبدو أنها أنثى تغذي غروره..
أزاح الهائم جانباً بذراع وسحبها نحوه بأخرى غير مبالياً بشيء سواها.. ظلت ثابتة بعينين تحجرا فوق وجهه..
غضب..
غيظ..

تمرد..

رفض..

تشبُث بمنحوتة ظلت تُشيِّدها لثمانِ أشهر..

دفعته فلم يستجب, توعدته بصوت خرج بعد صراع:

- مرحباً.. منتقمي الجبار!

توترت بجانب فكِّه عضلة, كانت محقة وكأنه وقت حساب..

وراضي يوقن أنه ليس سواه خلاص..

تنهد ببطء قبل أنْ يجيب بصوت أجش:

- معكِ حق.. يبدو أنْ نار انتقامي أحرقت قلبي.

ضحكت باستهزاء:

- وهل لديك قلب ليحترق؟!

أغمض عينيه كاتماً ضعفاً لا يستسيغه ليتابع بثبات:

- أنتِ قلبي.

لوقت ليس بهين ظلت ثابتة, ولم يتخلى هو عنها ولا عن ذراعها المتشبث به وكأنها ستهرب من جديد, بجفاء أبعدته:

- لقد انتهى وقت الهدنة.

استدارت..

لا تريده فهو عذاب يطير فوق جناحين ويود اختطافها مرة تلو أخرى حتى تقع صريعة بهواءٍ وهواه..

أوقفها بصرخة:

- أنا مثلك جوانْ.. أنا اختبرت الأمومة الزائفة وخزيها بدوري.. ولأهديك آخر أبيات القصيدة.. الانتقام لا يجدي.

اشتعلت بعينيها نيرانٌ مكتومة, بنبرة متحشرجة واجهته:

- ألم يشفك انتصارك؟!.. حققت كل ما تريد سيد طارق.

- أنتِ من أريد.

- أخرَس.

برقت عيناه بغضب وانقض وراءها متملكاً كلتا ذراعيها تلك المرة:

- لن أتركك جوانْ.. لا سبيل.

نهرته برفض قاسٍ:

- لم أعد من ممتلكاتك.

رغماً عنه أخطأ:

- ما زلتِ زوجتي.. ولم تطلبي الطلاق.

شحذ أسلحتها دون وعي بعبارة واحدة..

عندها اجتاحها بريق غريب قبل أن تردد:

- كنت في انتظار قوة أواجهك بها ويبدو أنها حضرت أخيراً!

جذبها مرة أخرى باقترابٍ ماجن:

- في أحلامك!..

بجفاءٍ أبعدته:

- تلك المرة لن تدبر أمورك بقبلة!.. اختلفت جوان.

وبرحيل أرادته قاطع تركته مرة أخرى حتى قاطعها بيأس:

- ألا تودين رؤيتها؟..

تسمرت..

شهور تنكرها وتتناساها..

قبل أن تجيبه برفض تابع بآخر أوراقه:

- لقد وقعت الملكة, جوان.. وكما أخبرتك لم يشغلني الانتقام.

****

نالت القصر بالنهاية..

ومعها مختار!

هل أخبرها الزمن أن النهاية ستكون واحدة؟..

عاجزان فوق مقعد مدولب وطاقم تمريض!!.

تصلبت بجسدها الضعيف حينما لمحت ظلها بالحديقة..

الملكة تهاوت بفضلها!

أسندها طارق وأيقن أنه يحمل بين ذراعيه بكاء, همست بندم:

- بسببي؟

- لا؟

أجفلها اضطرابه..

تابع بغيظ مكتوم:

- تهاوت بعد صدمة معرفتك بالأمر, وظن الطبيب أنها ستكون بخير وكان مخطئاً..

تدهورت حالتها يوم تلو آخر حتى أصبحت مثله..

"كان يقصد أبيه"

تابع بندم:

- ربما كنتِ أنتِ مكانها، وبسببي.

بكت بحرقه..

بنشيج بأن فوق صدره فيتمزق موقناً شعور تتفرد به هي دون النساء.. دون غنوة التي نسي بشائتها حتى الثأر..

طبع على خصلاتها قبلة ليضمها إليه أكثر وبتردد خطت هي نحو الأم القعيدة ولكنه أوقفها!

رمقته بحيرة فتابع بصدق:

- ليس الآن.. الصدمة غير مستحبة.

استدارت نحوها غير مصدقة، لم تكن فريدة كانت شبح يشبهها ترك أثره بخصلات بيضاء فوق شُقرتها وشحوب مؤلم اجتاح منبع الجمال.

بيأس رددت أخيراً:

- وكأنه جحيم دون أبواب..

أحاط جسدها باحتضان ثم أسند ذقنه فوق كتفيها كما اعتاد دائماً ليتابع بسخرية

تتشبث بأمل:

- ألا تودين رفيق بهذا الجحيم!.. صدقيني هناك لن تجدي أفضل مني!

استدارت غير مصدقة..

يعبث!

أحاط وجنتيها بكفيه دون قدره على اخفاء الوهن المتجسد بعينيه ثم أردف:

- جرحنا واحد.

لأول مرة ترى الأمر من منظور مختلف..

تشعر بألمه..

العجز..

والتشفي..

والغضب..

وهو ليس لديه ونيس، ولكن هي لديها راضي..

عادت لشفتيها شبه الابتسامة عندما لمحته يراقبها برضا..

لم تشعر بنفسها سوى باندفاع نحو أحضانه لتهمس للمتشبث بظلها بعد حين:

- تلك المرة ستكون بموافقة أبي.

مروة جمال

خبايا الظلال

تنهد براحة غادرته لسنوات قبل أنْ يجذبها نحوه متمتماً:

- بعد إذنك عمي...

وتنهد راضي مراقباً ابنته ورجل قد يكونْ أقسى ما ستختبره..

وقد يكونْ الأفضل..

ولكن حتماً..

انتهى عصر الظلال.

تمت بحمد الله

مروة جمال